دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تاريخ مصر المعاصر

د. أحمد زكريا الشِّلق

أحمد فتحي زغلول
وآثاره



أحمد فتحي زغلول

وآثاره

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة

أ. د. هشام عزمي

الشلق، أحمد زكريا، ١٩٤٨ -

أحمد فتحى زغلول وآثاره/ أحمد زكريا الشلق. .

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، الإدارة المركزية للمراكز العلمية، مركز تاريخ مصر المعاصر، ٢٠١٨.

٢١٦ص ؛ ٢٤ سم.

تدمك 3 - 1332 - 18 - 977 - 978

١ - السياسيون المصريون

٢ - زغلول، أحمد فتحى، ١٨٦٣ - ١٩١٤.

أ - العنوان

٩٢٣,٢٦٢

إخراج وطباعة:

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٥٦١ / ٢٠١٨

I.S.B.N. 978 - 977 - 18 - 1332 - 3

دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تاريخ مصر المعاصر

أحمد فتحي زغلول

وآثاره

د. أحمد زكريا الشِّلق

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٤٠ هـ - ٢٠١٨ م)

دار الكتب والوثائق القومية

أحمد فتحي زغلول

وآثاره

رئيس مجلس الإدارة

أ.د. هشام عزمي

مدير النشر

محمود عبد الحميد

مدير المطبعة

محمود يونس

المسئول التنفيذي

رمضان عطية

تصميم الغلاف

محمد عماد

تقديم

نشأت فكرة دراسة أحمد فتحى زغلول وأثره فى فكر النهضة من عدة اعتبارات ، منها أن مسألة تحديث وتمدين المجتمع المصرى قد واجهت المثقفين والمفكرين المصريين منذ أوائل القرن التاسع عشر (وإن كانت هناك دراسات حديثة ترجعها إلى فترة أبعد) . عندما اقتحمت أوربا مصر فى شكل حملة عسكرية فرنسية غازية عام ١٧٩٨ ، واطَّلع المصريون ، على كره منهم ، على نموذج حضارى قوى ومتفوق ، فى نواحيه المادية والمعنوية ، ثم تعامل مصر مع الحضارة الحديثة خلال عصر محمد على وخلفائه ، وزاد الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ من إلحاح القضية . . وخاصة عندما نشأت أجيال تحاول إدراك أسباب التأخر والضعف ، وتدرس أسباب تفوق الغرب ، وفى الحقبة الأولى أيام الحملة برزت أسماء الشيخ حسن العطار وإسماعيل الخشاب وعبد الرحمن الجبرتى وغيرهم . . ثم ظهر رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وحسين المرصفي . . وبعد ذلك ظهر محمد عبده وقاسم أمين ولطفى السيد وأحمد فتحى زغلول وغيرهم . . واتخذت القضية شكل الإجابة عن هذا السؤال : ما هو الأسلوب الذى ينبغى على مصر أن تتبعه لكى تنمو حضارياً وتتفوق؟ وما هو المثل الأعلى الذى تحتذيه ، أهو النموذج الأوربي ، أم العودة إلى الأصول النقية واستخراج أسباب التفوق منها؟ وبدأت الاجتهادات تتوالى : فهؤلاء دعاة التجديد على النمط الغربي ، أو دعاة التغريب ، وأولئك دعاة الأصول والسلفية والتمسك بالتراث ورفض النموذج الغربي ، وبين هؤلاء وأولئك دعاة التوفيقية من أنصار المزاوجة بين الأصول القيمة والتى تحمل فى طياتها بذور التطور ، وبين أساليب وأنماط الحضارة الغربية . . بل أكثر من هذا تفرعت عن هؤلاء وأولئك مذاهب شتى

وظهرت اجتهادات كثيرة . ولسنا نبالغ كثيراً إن قلنا أن هذه القضية لا تزال تشغل مجتمعنا العربى وعالمنا الشرقى بأسره ، طالما أن هناك شرق وغرب ، وطالما أنهما لن يلتقيا إلا على صراع !

ومن هذه الاعتبارات أننا نحاول إزالة غبار النسيان والتجاهل الذى لحق بتراث نفر من الكتاب والمفكرين المصريين ، فى محاولة لفهم تفكيرهم وتقدير إسهاماتهم فى تحديث الفكر المصرى ، وهو جهد بدأناه بدراسة عن الشيخ حسين المرصفي ، نشرت قبل سنوات ، ومنها أيضًا أن أحمد فتحى زغلولٍ لم يحظ بدراسة علمية تاريخية ، أو حتى غير علمية ، بالرغم من إسهاماته القيمة فى مجال تحديث المجتمع المصرى ، وبالتالى لم يوضع فى مكانته الصحيحة من تاريخ الفكر المصرى الحديث .

لقد تناول الرجل ، فيما ألف وترجم ، قضايا مهمة تتعلق بتمدن مصر والمصريين ، وتتصل بالتغريب والتعريب ، والإفادة من النموذج الأوربي ، سواء ما يتعلق بتراثه أو نشاطه التطبيقى ، بل أكثر من هذا ، فإن فتحى زغلول ، على ما ستظهر الدراسة ، كان صاحب فكر ورأي ، ينادى بالإفادة من الأصول التى استفاد منها الأوربيون ذاتهم ، مع الفهم العميق لطبيعة وتكوين ومشكلات المجتمع المصري ، ومحاولة الإفادة من هذه الأصول ، بما يتلاءم وطبيعة مصر والمصريين .

وفى الحق أن الرجل قد لقى إهمالاً وتجاهلاً لا يليق بقدره ، فلم تكتب عنه تقريبا كل المؤلفات والدراسات التى تناولت تحديث الفكر العربى أو علاقته بالحضارة الغربية . فتجاهله "د . هشام شرابي" فى كتابه عن المثقفين العرب وحضارة الغرب ، وكذلك فعلت "د .نازك سابايارد" وهى تكتب عن الرحالين العرب وحضارة الغرب كتابها القيم ، أما "د . ألبرت حوراني" فقد تذكره ببضعة

سطور فى كتابه عن الفكر العربى فى عصر النهضة ، كذلك لم يتذكره الدكتور محمد محمد حسين فى كتابه عن "الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر" إلا مقروناً بالحديث عن حادثة دنشواي ، باعتباره أحد جلاديها! .

وربما كان هذا التجاهل راجعًا إلى دوره فى محكمة دنشواى (يونيو ١٩٠٦) ، حين كان قاضيًا مشاركاً للإنجليز فى محاكماتهم الجائرة للفلاحين المصريين ، حيث كسب فتحى زغلول قضية وظيفته وذاته ، وخسر قضية الوطن ، ولحقت به لعنة دنشواى أينما حل أو ذهب . . وما جئنا هنا لندافع عن الرجل ، فيما عجز عنه أصدقاؤه ومحبوه ، وإنما أردنا أن نتناول جانباً آخر من حياته ، لم يشفع له فيه موقفه يوم دنشواي ، ذلك الجانب الذى عكف فيه على تراث الحضارة الغربية وأصولها الثقافية ، يترجم منها ويعرب ، ويطبق ما ينقله على هموم وطنه ومتاعبه . ولعل فتحى زغلول بطبيعته الهادئة المتأملة ، كان عزوفاً عن الدعاية لنفسه ، أو عن الانخراط ، بشكل كبير ، فى سلك الصحافة والسياسة ، بمعناهما العملى ، اللهم إلا من بعيد . وربما كان طغيان شخصية أخيه الأكبر سعد زغلول ، قد جذب الكثير من الأضواء من حوله .

وقد آثرنا أن نبدأ هذه الدراسة بترجمة مركزة لحياة فتحى زغلول ، نلقى فيها الضوء على انتمائه الاجتماعى ، وتكوينه الثقافي ، والوظائف التى ارتقى فى درجها ، وأتبعنا ذلك بدراسة موقعه من الحركة الوطنية المصرية ، وموقفه من الاحتلال البريطانى لمصر ، وأخيراً درسنا الخطوط العامة لاتجاهاته وإسهاماته الفكرية والنظرية وآرائه ومفاهيمه ، عن المذهب التحررى (الليبرالي) والديمقراطية ، والاشتراكية ، وفكر الصفوة ، وقضايا الإصلاح الاجتماعى ، وهو الجانب الآخر من حياة فتحى زغلول والذى يصب فى تاريخ فكر النهضة فى مصر المعاصرة .

وتقتضينا أمانة البحث أن نشير إلى إننا لم نستطع الحصول على مذكرات كتبها فتحى زغلول ، أشار أحد أصدقائه إلى أنه كان يدونها ، ومن هنا كان اعتمادنا بشكل أساسى على ترجمات فتحى والمقدمات والدراسات التى قدَّم بها هذه الترجمات ، ثم كُتبه المؤلفة ، إلى جانب مقالاته وخطبه ومحاضراته ، المبعثرة هنا وهناك ، وهى غنية بما يوضح دوره فى تحديث الفكر المصري ، ذلك الجانب المجهول من حياة فتحى زغلول .

وأخيرا يجب التنويه إلى أن هذه طبعة جديدة ، موسعة ومنقحة ، لطبعتين سابقتين من هذا العمل ، صدرت أولاهما عن الهيئة المصرية للكتاب عام ١٩٨٧ تحت عنوان " رؤية فى تحديث الفكر المصري ، أحمد فتحى زغلول وقضية التغريب" ضمت الدراسة وبعض الملاحق . والثانية صدرت عن هيئة قصور الثقافة عام ٢٠٠٦ تحت عنوان " أحمد فتحى زغلول والآثار الفتحية " ضمت الدراسة وعدداً من مقالات فتحى زغلول . أما هذه الطبعة الجديدة فقد شملت ، إلى جانب تنقيح الدراسة مقالات ومقدمات لكتب مهمة كتبها فتحى زغلول ، بالإضافة إلى مقالاته فى " الآثار الفتحية " جميعا ، فضلا عن وثائق من ملف خدمته ، وبذلك ضمت هذه الطبعة الآثار القلمية التى لم ترد فى كتبه المؤلفة .

و للَّه الفضل من قبل ومن بعد ،،،

دكتور أحمد زكريا الشلِّق

القاهرة – أغسطس ٢٠١٨

القسم الأول

الدراسة

أحمد فتحى زغلول وفكر النهضة

الفصل الأول

ترجمـــــة حيـــاة

الفصل الأول

تـرجمـة حيــاة

ولد فتح الله صبرى (أحمد فتحى زغلول فيما بعد) فى ٢٢ فبراير ١٨٦٣م الموافق ٤ ربيع الأول ١٢٧٩هـ ، بقرية "إبيانه" بمديرية الغربية[١] ، وكان أصغر أنجال المرحوم إبراهيم زغلول ، من أعيان القرية ، وقد توفى الوالد ، وهو ما يزال رضيعًا ، بينما كان أخوه سعد زغلول فطيمًا ، فخلفهما أبوهما فى حضانة أمهما ، التى كانت إحدى عقائل عائلة بركات الشهيرة بنفس المديرية ، ولم يكن عمرها قد تجاوز العشرين عند وفاة الزوج ، وقد قام على تعليمهما – فتح الله وسعد – أخوهما الكبير لأبيهما "الشناوى أفندى زغلول" الذى عنى بتربيتهما على أحسن ما تعلم به أبناء الأعيان[٢] .

لقد تلقى فتحى زغلول تعليمه الأولى فى كتاب القرية ، ومنه انتقل إلى مدرسة رشيد ، فالمدرسة التجهيزية ، إبان وقوع أحداث الثورة المصرية ٨١/ ١٨٨٢ المعروفة بالعرابية ، وقد شغلته الثورة بأحداثها وهو بعد لم يتجاوز العشرين ، فكان يحضر ندوات عبد الله النديم بالإسكندرية . ويشارك فيها خطيبًا ، يحثُّ ويحرض ، الأمر الذى تسبب ، مع تزايد نشاطه الثوري ، فى فصله من المدرسة بعد أن احتل الإنجليز مصر فى عام ١٨٨٢ ، غير أن ناظر المعارف العمومية آنئذ ، أحمد خيرى باشا ، كان يحبه لنباهته وفصاحته ، فأراد مساعدته على إتمام دراسته ، لذلك نصحه بتغيير إسمه حتى يمكن إعادة قيده بالمدرسة على أنه طالب جديد ، ومن هنا أصبح اسمه "أحمد فتحي" بدلاً من "فتح الله صبرى"[٣] .

انتقل فتحى بعد ذلك إلى مدرسة الألسن عام ١٨٨٣ ، ودرس بها وأبدى تقدمًا ملحوظاً أهَّله لأن يكون عضواً بإرسالية نظارة المعارف إلى فرنسا ، حيث درس الحقوق منذ عام ١٨٨٤ ، وحصل عام ١٨٨٧ على درجة الليسانس فى القانون ، وعندما عاد إلى وطنه أرسلته نظارة المعارف إلى نظارة الحقانية حاملاً طلب توظيفه بها "لتنتفع الحكومة بخدماته ، كما انتفع هو بتربيتها له على نفقتها"(٤) .

وهكذا بدأ فتحى زغلول دراسته فى كُتاب القرية ، شأن جيله ، حيث تلقى مبادئ القراءة والكتابة وحفظ بعضًا من القرآن الكريم ، ولكنه لم يتجه ، شأن أخيه سعد وشأن معظم أبناء الأعيان فى هذه الفترة إلى الأزهر ، لتتسع ثقافته الدينية ، ويضرب فيها بجذوره ، وإنما اتجه إلى المدارس الحديثة ليتلقى تعليمًا مدنيًا حديثًا ، انفتح من خلاله على اللغات والثقافات الأوربية ، وكذلك درس القوانين الوضعية ، فى صياغتها الفرنسية ، مما سيكون له دلالة مهمة فى تكوين ثقافته واتجاهاته وأفكاره فيما بعد على نحو ما سنرى .

استجاب فتحى بعد ذلك لنداء الوظيفة التى أهلته لها دراسته وثقافته ، وتحقيقاً لذات طموحه لبلوغ أعلى مراتبها ، والتى تفضى إلى مقاعد الحكم والسياسة ، فقد كانت إجازة الحقوق فى ذلك الوقت هى نقطة البداية ، ومنها يرتقى الإنسان إلى مناصب الإدارة ومدارج السلطة . وإذا عدنا إلى ملفه الوظيفى ، عرفنا أنه بدأ حياته العملية مساعداً لمندوب بقلم قضايا الحكومة منذ ١٢ سبتمبر ١٨٨٧ ، وعندما أنشئت المحاكم الأهلية بالوجه القبلى ، رقى فتحى إلى رئيس لنيابة أسيوط فى ٢٧ يونيو ١٨٨٩ ، ثم انتقل رئيسًا لنيابة الإسكندرية ، التى أصبح عضواً ، بحكم القانون ، فى مجلسها البلدى ، وكان هذا المجلس يضم صفوة من ذوى الكفاءات من الوطنيين والأوربيين ، وظل فى وظيفته حتى صدر قرار تشكيل لجنة المراقبة القضائية ، فعين مفتشًا بها

عام١٨٩١ ، وتدرج بعد ذلك حتى صار رئيساً لمحكمة المنصورة الأهلية فى ١٨ نوفمبر ١٨٩٣ ، ثم رئيسًا لمحكمة مصر الإبتدائية الأهلية فى ٢٦فبراير ١٨٩٦ (٥) .

وقد ظل فتحى يشغل هذه الوظيفة مدة طويلة (نحو أحد عشر عامًا) بالقياس إلى سرعة تدرجه فى الوظائف ، حتى رقى إلى وظيفة وكيل لنظارة الحقانية فى ٢٨ فبراير ١٩٠٧ ، ويفسر الزعيم الوطنى محمد فريد ، الذى كان أحد خصوم اتجاهه ومذهبه فى الحركة الوطنية ، ذلك بأنه "قد اشتهر عنه الارتشاء وسوء السلوك والانهماك فى القمار ، ولذلك منع وحرم من الترقى مدة ، وكانت النية معقودة على رفته ، إلا أنه عين قاضيًا فى محكمة دنشواى فى يونيو ١٩٠٦ ووافق الإنجليز على حكمهم القاسى المشهور ، فقام الرأى العام ضده ورماه بالخيانة ، فعضده الإنجليز وعينوه وكيلاً لنظارة الحقانية"(٦) . وفى مقابل هذا يذكر صديقه عبد الخالق ثروت (الذى كان ناظرًا للحقانية عند وفاة فتحى عام ١٩١٤) أنه " كان وهو رئيس محكمة مصر الإبتدائية آية فى القضاء وحسن الإدارة ، حتى كان تدخل النظارة فى أمورها النظامية يكاد يكون معدومًا جملة " (٧) .

على أية حال ، من المهم أن نوضح الآن أن فتحى زغلول ظل رئيسًا لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية منذ عام ١٨٩٦ وحتى ١٩٠٧ ، حين أصبح وكيلاً لنظارة الحقانية ، وأنه ظل يشغل وظيفته الأخيرة حتى توفى فى ٢٧مارس ١٩١٤(٨) . وبرغم تضارب الأقوال بشأنه وتعارضها ، فهناك عدة حقائق لا يمكن إنكارها ، منها أنه كان طموحًا بذل أقصى ما يستطيع لخدمة وظيفته ، تشهد بذلك علاقاته بمراكز القوة السياسية فى البلاد آنئذ (الخديو عباس حلمى الثانى ودار الوكالة البريطانية) ، إلى جانب موقفه من الأحداث التى عاصرها واشترك فيها ، ومنها أيضًا دوره فى وضع القوانين والنظم والتشريعات خلال تلك الفترة ، بحكم وظائفه وثقافته القانونية الرفيعة ، مما أهَّله بغير شك لذلك المنصب ، وربما لمنصب الوزارة ذاته ، لولا أن العمر لم يمتد به ليرتقيه .

ثمة مسألة ينبغى أن تؤخذ فى الاعتبار نستنتجها من العرض السابق ، وهى انتماء فتحى زغلول لإحدى عائلات الأعيان المصرية القادرين ماديًا ، الأمر الذى وفر له استقراراً ماديًا ساعده على تحقيق طموحاته ، ثم إن دخله من الوظائف التى تولاها كان يعد كبيراً نسبيًا[٩] ، بل إنه حقق فائضًا استطاع استثماره فى أهم مجال عرف فى عصره للاستثمار ، وهو شراء الأراضى والعقارات ، ومن المعروف أن فتحى قد ورث ما يقرب من عشرين فداناً فى قريته ، واستمر يزيد عليها بالشراء ، حتى بلغت ممتلكاته عام **١٩٠٢** نحو **٣١٢** فداناً[١٠] .

وكان فتحى عضواً مؤسسًا فى الجمعية الخيرية الإسلامية منذ أن أسسها الإمام محمد عبده مع صديقيه سعد زغلول وحسن عاصم عام **١٨٩٢** ، وظل عضواً بها حتى تاريخ وفاته ، كما أنه كان عضواً مؤثرًا فى نشاطاتها ، حيث كان يُختار فى كل لجنة تشكلها الجمعية ، وقد ورد فى تقريرها السنوى "أن فتحى كان أكبر الذين أنفقوا أنفس أوقاتهم ، وبذلوا من قواهم وملكاتهم الكثير فى تكوين الجمعية حتى بلغت مكانتها وأصبحت تؤدى للأمة من النفع ما تعلمون"[١١] .

وقد أهلته مكانته الاجتماعية وتقدمه فى الوظائف التى تولاها ، والتى توّجت بوكالة نظارة الحقانية ، لأن يحصل على مرتبة "الميرميران برأس همايونى" ، ثم أصبح يحمل لقب "باشا"[١٢] .

وقد عرف أصدقاؤه من رجال العلم والأدب فضله فى مجالى الكتابة والترجمة ، فأقاموا له فى **٢٧** يونيو عام **١٩١٣** حفل تكريم بدار الجامعة المصرية ، حضرها العلماء والأدباء ورجال القضاءين الأهلى والشرعى ، وقدمت فيها مجموعة أعماله مجلدة أنفس تجليد ، كما احتفلوا بتكريم ذكراه فى حفل آخر

أقاموها لتأبينه بدار الأوبرا الخديوية فى ١٨ مايو ١٩١٤ بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته واشترك فى رثائه عدد من الوزراء والأمراء[١٣] .

وذكر لطفى السيد "أن جنازته قد شيعت من بيت أخيه سعد باشا ، ومشى فيها كل الرجال الرسميين ورجال الأمة وأهل العلم والأدب ، فكان هذا الموكب من أكبر ما وجد فى مصر"[١٤] .

وتتفق أغلب المصادر على أن فتحى زغلول قد لعب دورا إصلاحيًا كبيراً ، وأنه كان رجل ارتقاء وإصلاح ، ساهم فى وضع قوانين المحاكم الشرعية ، التى تنظمها وتسير بمقتضاها ، كما قام بدور بارز فى وضع نظم المعاهد الدينية الأزهرية ، حين كان رئيسًا للجنة التى شكلت لإصلاح هذه المعاهد ، وكانت تضم معه إسماعيل صدقى وعبدالخالق ثروت ، وقد اعترف الأخير بأن فتحى وحده كان صاحب الفضل فى كل ما وضع من نظامات[١٥] . وأنه كثيراً ما بحث ونقب وجمع ورتب وحادث واستشار ، ووقف مواقف مشهورة منتصراً لما يعتقده الحق ، تأييداً للإصلاح ، حتى صار إسمه لا يذكر إلا مقروناً بماله من الفضل فى هذا السبيل[١٦] .

لقد كان فتحى عمدة الحكومة فى كثير من المشروعات الدقيقة التى تحتاج إلى مفاوضات بين جهات مختلفة ، وموضع استشارة ، عن نظارته وغير نظارته ، فى وضع القوانين ، كما تشهد بذلك الألسن والتقارير الرسمية[١٧] . ولا عجب فى ذلك فقد كان فتحى على دراية واسعة وعميقة بدراسة النظم والقوانين فى مصر وأوروبا ، كما تميز بعقلية محققة مدققة ذات مقدرة وكفاية عالية فى الصياغة القانونية ، صقلتها الدُرْبة والمراس فى مجال العمل ومجال التأليف القانونى على حد سواء .

***

هوامش الفصل الأول

(١) ملف خدمة أحمد فتحى زغلول المودع بدار المحفوظات العمومية المصرية بالقلعة وهو تحت رقم ٢٥٦٨٧ ، محفظة ١١٠٥ ، ومخزن رقم ٥٤ ، ورقة (٧٢) وتعرف الوثيقة بلدته أبيانه بأنها "مركز بلاد الأرز غرباً" ، وهى تابعة الآن لمحافظة كفر الشيخ طبقاً للتقسيم الإدارى الحالى .

(٢) أحمد لطفى السيد : تأملات فى الفلسفة ، ص١٢٣ وكذلك : الجريدة فى ٩ مايو١٩١٤ .

(٣) أوراق محمد فريد : (غير منشورة) المجلد الأول "مذكراتى بعد الهجرة" ، ص١١٢-١١٣ . وإن كان لطفى قد ذكر أن التسمية جاءت عندما انتقل فتحى من المدرسة التجهيزية إلى مدرسة الألسن التى زارها ناظر المعارف وأعجب بذكاء الشاب فتح الله صبرى وأعطاه إسم "أحمد" ونحت من فتح الله "فتحي" وأصدر أمراً رسمياً إلى المدرسة بتسميته "أحمد فتحي" وبأن يرد إليه ما دفع من المصروفات واعتباره طالباً مجانياً (الجريدة فى ٩ مايو ١٩١٤) . وانظر كذلك ، زاخورا : مرآة العصر ، مجلد (٢) ص ٣٥١ . وكذلك محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ (١) ، ص ٢٣٦ ، وفيه ذكر كيف كان فتحى يحضر خطب النديم وهو فى مدرسة رأس التين بالإسكندرية .

(٤) ملف خدمته ، ورقة (١٤) وقد جاء فيها أنه "أحد تلامذة الرسالة المصرية بأوربا ، وقد عاد الآن متحصلاً على دبلوم الحقوق ، إن هذا الأفندى هو ضمن التلامذة الذين ربتهم الحكومة المصرية على نفقتها ، ومع ما هو متحصل عليه من علوم الحقوق ، تحصل أيضاً على اللغتين العربية والفرنساوية" .

(٥) ملف خدمته ، ورقة (٧٢) ، وكذلك أحمد فتحى زغلول : الآثار الفتحية ، من ترجمة صالح بك جودت له ، ص٨-٩ . وإن كان لطفى السيد قد ذكر أن فتحى كان رئيساً لمحكمة الزقازيق وليس المنصورة (تأملات فى الفلسفة ، ص ١٢٤) . وكذلك : الجريدة فى ١٠ مايو ١٩١٤ (من كلمة عبدالخالق ثروت فى تأبينه) ويؤيد هذا محمد فريد فى مذكراته "تاريخ مصر ابتداء من ١٨٩١ مسيحية" ك ٣ ، ص ٢٦ . وقد ذكر أنه عين فى ٢٢ نوفمبر ١٨٩٣ .

(٦) أوراق محمد فريد : المجلد الأول ، مذكراتى بعد الهجرة ، ص ١٣ .

(٧) الجريدة فى ١٠ مايو ١٩١٤ من كلمة عبد الخالق ثروت فى حفل تأبينه ، كما ذكر صالح بك جودت "بأنه قد طال عهده وهو صابر يرى من كان خلفه من الأقران يسبقه إلى الوظائف الكبرى ولا يبدى شكوى ، حتى علم فضله وذاع نبله ، فولته الحكومة مركز وكيل نظارة الحقانية عام ١٩٠٧ (الآثار الفتحية ص ٨-٩) .

(٨) ملف خدمته ، ورقة (٧٢) .

(٩) كان مرتبه الشهرى عام١٨٩٣ أربعين جنيهاً ، وعندما أصبح وكيلاً للوزارة عام ١٩٠٧ أصبح راتبه ١٢٥ جنيهاً شهرياً (انظر ملف خدمته رقم ٢٥٦٨٧ ورقة (٧٢) وفيها تدرج مرتباته وعلاواته) .

(١٠) ورث فتحى ٢٠ فداناً بالإضافة إلى حصة المبانى والمنازل والأراضى الفضاء بناحية إبيانه مركز فوة ثم اشترى مائة فدان بالصالحية بمديرية الشرقية ، ثم أضاف إلى ذلك ١٩٣ فداناً بناحية محلة أبو على

الغربية التابعة لمركز دسوق فى مارس ١٩٠٢ (ملف خدمته ، أوراق ٦٦ ، ٦٧ ، وهى إقرارات ممتلكاته) وقد روى محمد فريد فى مذكراته "سمعت من زيور باشا محافظ الإسكندرية أن أحمد باشا عفيفى وكيل زوجة الشواربى الغنى الكبير الذى مات قريباً ، وجد ضمن أوراق المتوفى سندين على أحمد باشا فتحى زغلول ، أحدهما بألف ومائتى جنيه والثانى بأربعمائة مقسطين على أقساط شهرية ، كل منها بخمسة وعشرين فقط بلا فائدة ، وأن فتحى أراد أتلافهما وعدم درجهما للمطلوب للشواربى ، أى أراد سرقة السندات ليضيع المبلغ ، فلم يوافقه ، فقد كان فتحى باشا مقابل هذا الخدمة يساعد الشواربى كثيراً فى أعماله ، فهكذا الموظفون الأمناء! . . "انظر :أوراق محمد فريد ، مذكراتى بعد الهجرة ، ك (٢) ص١١٢- ١١٣ .

(١١) من تقرير الجمعية الخيرية الإسلامية ، منشور بالآثار الفتحية ص ٢ . ثم انظر :

Ahmed J.M., the Intellectual Origins of Egyptian Nationalism, P.39.

(١٢) ملف خدمة فتحى زغلول ، ورقة (١٩) .

(١٣) أحمد فتحى زغلول : الآثار الفتحية ، ص ٩ (من ترجمة صالح بك جودت له) . وقد أضاف لطفى السيد أن فتحى خطب فى حفل دار الجامعة المصرية لتتويج كتبه ومؤلفاته ، موصياً المحتفلين به "علموا الأمة . علموا الأمة . علموا الأمة" . (أنظر تأملات فى الفلسفة ص ١١٤) .

(١٤) أحمد لطفى السيد : تأملات فى الفلسفة . . ، ص ١١٤ .

(١٥) الجريدة فى ١٠ مايو ١٩١٤ (كلمة ثروت باشا) ، محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الأمام ، جـ١ ، ص ٥٩١ .

(١٦) عن ترجمة صالح جودت له فى "الآثار الفتحية ص ٨" .

(١٧) أحمد لطفى السيد : تأملات فى الفلسفة ، ص ١٣٣ .

الفصل الثانى

فتحي زغلول والحركة الوطنية المصرية

الفصل الثانى

فتحى زغلول والحركة الوطنية المصرية

آن لنا أن نتساءل عن دور أحمد فتحى زغلول فى السياسة المصرية ، وعن مذهبه فى الوطنية ويمكننا أن نستنتج ذلك من خلال نشاطاته وعلاقاته بمراكز القوة السياسية ومصادرها ، ومن خلال صلاته بالتجمعات السياسية أو الأحزاب التى ظهرت فى عصره .

وبادئ ذى بدء ، ينبغى أن نذكر أن فتحى زغلول ينتمى لجماعة الإمام محمد عبده ومذهبها فى السياسة والوطنية . تلك الجماعة التى تبدأ جذورها منذ وجود جمال الدين الأفغانى بمصر خلال سبعينيات القرن التاسع عشر ، ثم ازدهرت بفكر ونشاط محمد عبده ، وكانت تعقد اجتماعاتها بصالون الأميرة نازلى فاضل ، الذى لعب دوراً مهمًا فى تغيير أفكار محمد عبده الخاصة بالإنجليز ، وسمح بصداقته للورد كرومر ، كما ساعد بعض المصريين المستنيرين ، ممن اختلفوا إليه فى الحصول على مناصب الإدارة المصرية . ثم لعبت الجماعة دورها من خلال الجمعية الخيرية الإسلامية ، كما التقت فى حلقات الإمام الأسبوعية التى كان يلتقى فيها بعض المفكرين من متخرجى دار العلوم وأساتذة المدارس الأميرية وغيرهم من رجال الحكومة والأدباء[1] .

لقد كان فتحى من الرعيل الأول من تلاميذ محمد عبده ، ومن أقرب أنصاره إليه ، «وكان هو وسعدٌ يرجعان للإمام فى كل خطوبهما ، ويتحاكمان إليه فى تنازعهما ، ويكونان معه كالولد أمام والده ، والتلميذ بين يدى أستاذه»[2] . وقد بلغ من صداقة فتحى للإمام أنه كان ممن يصطفيهم الإمام معه للإصطياف

بسوريا ، وكان فتحى وقتها رئيسًا لمحكمة مصر الأهلية ، وغير بعيد أن يكون فتحى قد تأثر بأفكار أستاذه وتوجيهاته فيما نقل وترجم عن الفكر الأوربى(٣) .

وكان فتحى زغلول على رأس الساعين لتكريم الشيخ بعد وفاته عام ١٩٠٥ ، فقد اجتمع تلاميذه وأصدقاؤه للتشاور فيما يمكن عمله لتخليد ذكراه ، فمنهم من اقترح إنشاء مدرسة جامعة بإسمه ، ومنهم من اقترح إقامة مكتبة . . . إلخ . وقد روى سعد زغلول فى مذكراته أن فتحى ذهب مع أخى الشيخ محمد عبده وقدمه للورد كرومر ، المعتمد السياسى البريطانى فى مصر ، وشكره على كونه ساعد عائلته بالمبلغ الذى أُعطى لها عقب وفاته ، وأنه انتهز الفرصة لاستشارة المعتمد البريطانى فيما يمكن عمله لتخليد ذكرى الإمام ، فقال له كرومر : إذا أردتم أن تقيموا مدرسة فلتكن على مثال كلية "عليكرة" بالهند ، ووعد بإحضار نظم هذه المدرسة ، وقد أحضرها فعلاً وسلمها لفتحى زغلول(٤) .

ولم يقدَّر لفكرة المدرسة أن تتم ، حيث استُبدلت بها فكرة إصدار صحيفة من جانب أنصار محمد عبده وتلاميذه ، ليعبروا عن اتجاهه فى السياسة المصرية ، ذلك الاتجاه الذى اتضحت ملامحه وعلاقاته ، وتشربه أشياعه وأتباعه ، وقد لقوا اهتمامًا واضحًا من اللورد كرومر ، وأشاد بهم فى تقاريره وكتاباته ، كما أشاد باتجاهاتهم الإصلاحية ، وبُعدهم عن فكرة الجامعة الإسلامية ، وقد حبذ فيهم كرومر اعتدالهم فى مذهبى الإصلاح والوطنية ، واعتبرهم لا يقلون وطنية عن "المتطرفين" من أنصار مصطفى كامل وحزبهم الوطني . وقد رأى كرومر أنهم أمل القومية المصرية فى معناها العملي ، ومعقد الرجاء فى التعاون مع الأوربيين(٥) .

وقد نسب أحمد فتحى زغلول لنفسه فكرة تكوين شركة الصحيفة ، التى سميت "الجريدة" فيما بعد ونطقت بلسان حزب الأمة ، فقد ذكر سعد فى

مذكراته أن فتحى سعى لدى الخديوى عباس حلمى بأن سعداً أراد أن يؤلف من أصدقاء الشيخ وأنصاره حزبًا وجمعهم عنده ، ولكنه – أى فتحى – أراد أن يحولهم عن غرضهم ، فأخذ أخا الشيخ محمد عبده إلى اللورد كرومر ، ومن هنا نشأت فكرة إصدار جريدة . ورغم أن سعداً قد استنكر هذه السعاية ، إلا أنه ذكر أن فتحى روى له أنه قابل الخديوي ، وذكر له "إنى أنا الذى أنشأت الجريدة ، ولولا دخولى فيها ما تم من أمر إنشائها شيئاً"(٦) .

وبالفعل توالت اجتماعات أنصار الإمام وتلاميذه ، حتى ألفوا جمعية عمومية لإعلان إصدار الصحيفة ، وقد ضمت هذه الجمعية عدداً من كبار الموظفين ، الذين امتنعوا عن الترشح لمجلس إدارة الجريدة ، على اعتبار أن ذلك يعد نشاطاً سياسيًا تحول وظائفهم دون التورط فيه ، «وبقى أصحاب السعادة الموظفين غير عاملين ، وإن كانوا مساهمين تجب دعوتهم لحضور الجمعية العمومية» . وكان فتحى زغلول على رأس هؤلاء ، بل لقد ترأس اللجنة التى شكلت لوضع قانون شركة الجريدة(٧) .

ويبدو حقيقة أن دور فتحى زغلول فى تأليف شركة "الجريدة" وتأسيس حزب الأمة ، الذى نطقت بلسانه ، قد وقف عند هذا الحد ، فقد عرف بغضب الخديوى عليها ، وعلى من يشتغلون بها ، فانصرف عنها تماماً ، بل إن الخديوى عندما استدعاه وعاتبه على هذا الأمر نسبه إلى محمد محمود – مدير الفيوم آنئذ – وأضاف أنه هو الذى يحضر من الفيوم دائمًا للإشراف على أعمالها(٨) . وفى هذه الرواية الأخيرة ما يناقض ما رواه فتحى لأخيه سعد من أنه ذكر للخديو أنه هو الذى أنشأ الجريدة .

والأكثر من هذا أن فتحى زغلول تعهد للخديوي ، فى مقابلته الأخيرة ، بأنه سيسعى لإحباط الجريدة وحزب الأمة ، وعندما واجه سعد أخاه بما يقوله

الناس "فى الخارج عن هذه المقابلة ونسبوا إليك أنك تعهدت لجنابه أن تفسد الجريدة وحزبها"[٩] لم يستطع فتحى أن يدافع عن نفسه ، بينما برر محمد محمود انسلاخ فتحى عن جماعة الجريدة بأنها أصبحت تكتب ضد اللورد كرومر[١٠] ، وكانت لهجة الصحيفة قد بدأت تتغير بالفعل عقب رحيل اللورد عن مصر نهائياً ، وتأكُدها من أنه لن يعود! .

***

يقودنا ما سبق إلى التساؤل عن علاقة فتحى زغلول بالخديوى عباس حلمي الثانى ، صاحب السلطة الشرعية فى البلاد ، والذى كان على علاقة سيئة باللورد كرومر . وهو ما عرف آنذاك "بسياسة الخلاف" بين السلطتين الشرعية والفعلية ، ويمثل كرومر السلطة الأخيرة ، لقد كان فتحي ، وهو من كبار موظفى الدولة ، حريصًا على أن تظل علاقته بالخديوى طيبة دائمًا ، ومن ثم كان يبتعد عن أى عمل يغضبه أو يثير حفيظته ، بل كان فتحى يُطلع الخديوي ، من خلال زياراته المتكررة للديوان الخديوي ، على ما يدور بين أصدقائه من السياسيين أولاً بأول ، ولعل هذا ما دعا سعداً لأن يواجهه بأن "الكثير من الناس يقولون عليك أقوالاً كثيرة : يقولون إنك دساس تسيء إلى إخوانك إذا تمكنت ولا تبالى إلا بفائدتك"[١١] . وكان فتحى يُكافأ على ذلك باستحسان الخديوى ورضائه ، بل وإنعاماته ، فعندما وشى بمحمد محمود للخديو ، وذكر له أنه يجيء من الفيوم ليشتغل بالجريدة وحزب الأمة ، كما ذكرنا ، علَّق الخديوى بقوله : "إنى راضٍ عنك وقد منحتُك نيشاناً"[١٢] .

ولم يكن الخديوى عباس فى الواقع يثق بفتحى زغلول ، وإنما كان يقربه منه ليستخدمه للعمل ضد زملائه ، فقد أنَّبه الخديوى ووبخه – كما مر بنا – لاشتغاله بأمر "الجريدة" فذكر للخديوي ، مدافعًا عن نفسه ، بأنه عندما رأى

الجريدة سارت على غير أفكاره ، قطع علاقته بها وبحزب الأمة ، وأنه لم يجتمع بأعضائه إلا فى الليلة التى اجتمعوا فى مسائها[١٣] .

ولكن يبدو أن فتحى ظل على علاقته برجال الحزب ، من أصدقائه السياسيين ، لأن الخديوى عاد واستدعاه فى يناير ١٩٠٨ (أى بعد ثلاثة أشهر من قيام حزب الأمة) وقال له : "إنى انتقد عليك قبل كل شيء أنك من حزب الشيخ محمد عبده ، الذى افتضحت نياته السيئة فى هذه الأيام . . وانتقد عليك كذلك أعمالك فى حزب الأمة ، وفى الجريدة . . فقال فتحي : يا أفندينا نحن غير راضين عن خطة الجريدة ، ولهذا حررنا لمديرها خطاباً بذلك" ، ووعد أن يحضر لسموه الخطاب ، وقد ذكر الخديوى لأحمد شفيق – الذى روى اللقاء – "عند أخذ هذا الخطاب سأسلمه لجورست (المعتمد السياسى الذى خلف كرومر) وأقول له هل يليق بموظف كبير أن يتدخل فى مسائل الجرائد والمسائل السياسية ويكون عضواً فى حزب؟!"[١٤] .

لقد كان فتحى زغلول يهدف إلى إرضاء الخديوي ، فلم يكن على استعداد لمعاداته ، وذلك لحرصه على إيجاد نوع من التوازن فى علاقاته ، ممهداً بذلك السبيل لتحقيق طموحاته . وبشكل عام يمكن التأكيد على أن حزب الأمة ، الذى أعلن عن قيامه فى سبتمبر عام ١٩٠٧ ، لم يشهد بعد ذلك لفتحى زغلول أى نشاط فيه ، كما لم يكتب فى صحيفته ، التى تجاهلته هى الأخرى ، وتجاهلت مؤلفاته وكتاباته ، برغم انتمائه ثقافيًا وفكريًا لجماعة المثقفين والكتاب الذين ضمتهم صحيفة الحزب . ويمكننا القول بأن فتحي ، رغم اشتراكه فى تأسيس صحيفة الحزب ، وفى تأليف الحزب ذاته ، إلا أنه ابتعد عنه تمامًا بعد عدة شهور من إعلان قيامه ، إرضاءً للخديوي ، واسترضاءً للمعتمد البريطانى الجديد "السير إلدن جورست" الذى أصبح على وفاق تام مع خديوى البلاد .

❊ ❊ ❊

وتعود علاقة فتحى زغلول بقضية الإحتلال البريطانى وسلطاته بمصر ، إلى انتمائه السياسى لجماعة الشيخ محمد عبده ، وفى إطار هذا الانتماء تحرك موقفه من القضية الوطنية . . لقد كان فتحى واعيًا بحقيقة الصراع بين صاحبى السلطتين فى مصر ، الشرعية ويمثلها الخديوي ، والفعلية ويمثلها كرومر ، ومن هنا تجاهل سلطة الخديوى وتعامل مع الحاكم الحقيقى لمصر ، وكان كرومر عنيفًا مستبداً بكل الأمور ، ممثلاً لمصالح بلاده الاستعمارية خير تمثيل ، كما كانت فى يده مقاليد الأمور جميعاً ، وكان حريصًا على تقوية الاتجاه الذى يمثله محمد عبده وأنصاره فى السياسة المصرية ، وربما كان سير فتحى زغلول فى هذا الاتجاه ، بعد وفاة محمد عبده ، يتفق ومصالحه الخاصة ، التى ستتحقق بدون شك من خلال اشتغاله فى إطار هذه الجماعة ، بمباركة اللورد كرومر وتعضيده .

ولم يقتصد فتحى فى نشاطه ، كما فعل سعد بحنكة ، فاشتغل صراحة فى هذا الاتجاه ، وتقدم الصفوف وذهب مع أخى الشيخ محمد عبده إلى دار الوكالة البريطانية ، وشكر اللورد كرومر على ذكره الإمام فى تقريره السنوى وإشادته به ، وكان بينهما ما كان بشأن تخليد ذكراه(١٥) . وربما تصور فتحى زغلول أنه يقود بذلك الجماعة ، وبهذا يكون قد حدد حركته بتقديم نفسه على النحو السابق لصاحب القوة الفعلية فى مصر ، ومن الواضح أن علاقته باللورد كانت طيبة ووثيقة ، بحيث سمحت له بأن يتولى هذا الأمر .

* * *

ثم راح فتحى زغلول يقدم نفسه لسلطات الاحتلال البريطانى قاضيًا فى محكمة دنشواي ، وقد جلب له ذلك الاتهام بأنه كان واحداً من جلاديها! فعندما وقعت الحادثة فى ١٣ يونيو ١٩٠٦ ، وادعت فيها سلطات الاحتلال أن فلاحى القرية المصرية قد اعتدوا على الضباط الإنجليز وقتلوا واحداً منهم ،

شكلت محكمة مخصوصة لمحاكمة الفلاحين ، الذين بلغوا أكثر من خمسين متهمًا ، وكان تشكيل هذه المحكمة على النحو التالى :

- بطرس باشا غالى بصفته قائمًا بعمل ناظر الحقانية رئيسًا .
- مستر وليام جودينو هيتر القائم بعمل المستشار القضائى عضواً .
- مستر بوند نائب رئيس محكمة الاستئناف الأهلية عضواً .
- الكولونيل لادلو مسئول القضاء والمحاماة بجيش الاحتلال عضواً .
- أحمد بك فتحى زغلول رئيس محكمة القاهرة الابتدائية الأهلية عضواً .

كما تولى السكرتارية عثمان بك مرتضى ، وقام بمهمة الإدعاء إبراهيم بك الهلباوى ، وتولى مهمة الدفاع : محمد بك يوسف وإسماعيل بك عاصم ، ثم أحمد بك لطفى السيد(١٦) .

وقد ذكر «ميخائيل شاروبيم» أنه كان فى نية أصحاب الحل والعقد أن يصدر حكم المحكمة قبل سفر اللورد كرومر إلى مصيفه ، فلم يتمكنوا من إنجاز التحقيق فى الوقت المعين ، وهمَّ اللورد بالسفر فاجتمع لوداعه جماعة من الأمراء والوزراء وأصحاب الوظائف العليا ، وكان بين المودعين فتحى بك زغلول ، فمال إليه اللورد كرومر وأخذ بيده ناحيته ، وجعل يكلمه همسًا لحظة ، وكان فتحى يظهر غاية الاستعداد لسماع همس اللورد ويشير بيده إشارات الطاعة والقبول واللورد يشدد فى كلامه ، فتطيَّر بعض المودعين من هذا الحادث ، وظنوا أن وراء الأَكَمة ما وراءها . ."(١٧) .

وعمومًا تمت إجراءات المحاكمة فى الفترة ٢٤-٢٧ يونيو ١٩٠٦ وسط مشاعر السخط والغضب من قبل الجماهير ، وصدرت أحكام قاسية جائرة لا تقبل الطعن ، تقضى بإعدام أربعة من الأهالى ، وبالأشغال الشاقة المؤبدة لاثنين ، وبالسجن ١٥ عاماً لواحد ، كما قضت على ستة آخرين بالسجن سبع

سنوات ، وبالحبس والجلد على آخرين لمدد قصيرة . . وفى ٢٨ يونيو نُفِّذت الأحكام جميعها فى وقت واحد فى القرية ، تحت سمع وبصر الأهلين لإرهابهم . . وكانت الإجراءات الشنيعة التى لجأت إليها سلطات الاحتلال فى هذه المحاكمة وتلك الأحكام مثار سخط عميق فى الداخل والخارج ، مما ألهب المشاعر الوطنية ضد وحشية الإنجليز .

بل إن اللورد كرومر قد اعترف ، فيما بعد ، فى كتاب ألفه عن الخديوى بعنوان "عباس الثاني" بأن الأحكام التى صدرت عن المحكمة المخصوصة فى دنشواى لم تكن عادلة(١٨) . كما نجح الزعيم الوطنى مصطفى كامل فى استغلال هذه الأحكام لفضح السياسة الكرومرية وبربرية الإنجليز .

وليس من قبيل الصدفة أن يكون ثلاثة من شيعة الإمام محمد عبده من أبطال محاكمة دنشواى ، قضاة وجلادين ومحامين ، فلطفى السيد ، الذى مثل فى هيئة الدفاع ، رغم محاولاته توضيح أن الهجوم على الضباط الإنجليز كان مَحْضُ صُدفة ، وأن الجريمة بِنْت لحظتها ، إلا أن المحكمة أقرت بجرم الفلاحين ، ورفضت طلبه استخدام الرأفة . أما إبراهيم الهلباوي ، ممثل النائب العمومى فى التحقيق ، فقد وقف ساعات ثلاث يطالب القضاة بأن ينزعوا من قلوبهم كل رحمة ، ويشيد بما قدمته سلطات الاحتلال لمصر ، ومن المذهل أن الهلباوى قد بنى ادعاءه على أن الضباط الإنجليز صادقون بالفطرة ، أما الفلاحين فهم كاذبون بالفطرة أيضاً!(١٩) .

أما الثالث فهو أحمد فتحى زغلول ، العضو المصرى الوحيد ، بعد الرئيس ، فى هيئة القضاة ، وهو الذى تولى صياغة حيثيات الحكم ، وكانت صورة أخرى من وجهة النظر الإنجليزية بشأن الحادثة ، من حيث الإشارة إلى أن الأهالى هم الذين أشعلوا النار عمداً فى حقولهم ، كمقدمة لمهاجمة الضباط الإنجليز ، وقد أضاف فتحى زغلول "إن الجريمة وقعت على ضباط عرفوا بالبسالة وجابوا مواقع

الحروب ، وكان فى إمكانهم صيد المعتدين ، بدلاً من صيد حمامهم ، ولكنهم صنعوا جميلاً ، فسلموا عدتهم ليسْلموا ، فكان العَطَبُ فيما فعلوا . . هؤلاء المتهمون لم يتركوا بعملهم الفظيع هذا محلاً للشفقة ، فما كانوا من المشفقين"[٢٠] .

وقد علق القاضى الإنجليزى "مارشال" وهو من زملاء «بوند» وفتحى زغلول ، على الحيثيات التى كتبها فتحى زغلول بأنها "من أضعف ما قرأت ، وأنها من النوع الذى تتم صياغته ليلائم الأحكام التى تصدر ، وأنه أراد أن يرضى الإنجليز لأنه بقى مدة طويلة رئيسًا للمحكمة الابتدائية ، وكان يريد أن يرقى إلى محكمة الاستئناف ، لكن بوند لم يكن يريده هناك . ."[٢١] .

وفى مقال مهم يكشف عن موقف الحزب الوطنى من قضاة دنشواى كتبه الشيخ عبد العزيز جاويش فى صحيفة "اللواء" بمناسبة أحكام دنشواى فى ٢٨ يونيو ١٩٠٦ ذكر فيه : "سلام على تلك الأرواح البريئة التى انتزعها بطرس باشا غالى رئيس المحكمة المخصوصة بقضائه من مكامنها فى أجسامها ، قبضها بيده ، فقدمها قرباناً إلى ذلك الجبار الظالم الغاصب القاهر . . المستبد بالأمر فينا بسبب تفرقنا وضعف عزائمنا . سلام على أولئك الذين وقف فيهم هلباوى بك فثار ثورة الجبارين الظالمين وتوعد الآثمين . . طلب إلى قضاة دنشواى أن يحشر أهل دنشواى فيقدموا قرابين إلى هيكل الاحتلال الذى هو معبد الخائنين . . فما لبث رئيس المحكمة بطرس باشا وزميله قاضى دنشواى أحمد فتحى باشا أن استغوتهما المناصب واسترهبهما الاحتلال فأنطقهما بذلك الحكم الجائر لرغب فى الألقاب والمناصب وعوز النفس إلى الشعور بالواجب . ." .

وتتفق معظم المصادر على أن فتحى زغلول كوفئ من جانب الإنجليز ، على موقفه أثناء المحاكمة ، بترقيته إلى منصب وكيل نظارة الحقانية ، وليس إلى

محكمة الاستئناف ، وقد رقى إلى المنصب الكبير بعد ثمانية شهور من المحاكمة بالفعل ، اشتغل خلالها بالاشتراك فى تأليف شركة "الجريدة" ووضع قانونها وتأسيس حزب الأمة .

وقد روت المصادر أنه عندما تولى فتحى منصبه أراد بعض كبار الموظفين والأصدقاء أن يقيموا له حفل تكريم بفندق "شبرد" وطلبوا إلى أمير الشعراء أحمد شوقى بأن يشاركهم حفلهم بإحدى قصائده ، فوعدهم بإرسالها لتلاوتها – وكان شوقى لا يتلو شعره بنفسه – وبالفعل وصل رسول الشاعر إلى المحتفلين ، وكانت المفاجأة أن احتوت القصيدة على هذه الأبيات :

إذا ما جمعتم أمركم وهممتمُ بتقديم شيء للوكيل ثمين!
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة ووسروال مجلود وقيد سجين
ولا تعرضوا شعرى عليه فحسبه من الشعر حكمٌ خطَّه بيمين
ولا تقرأوه فى "شبرد" بل انشروا على ملأ من دنشواى حزين

غير أن «الدكتور محمد صبرى» حقق المسألة نقلاً عن صحيفة «خيال الظل» (٢٠ يونيو ١٩٠٧) وأثبت أنه لم تُقَم هذه الحفلة وإنما كان التفكير منحصراً فى تقديم هدية إلى فتحى تكريماً له بمناسبة الترقية ، وأن شوقى يشير إلى هذه الهدية فى البيت الأول ، وأن صحيفة اللواء كتبت فى ٩ يونيو ١٩٠٧ بأن "مأجورو قاضى دنشواى يريدون أن يقدموا إليه هديتهم فى هذا الشهر" إشارة إلى أن الحادثة حدثت فى يونيو ١٩٠٦ .

وقد هاجمت كل الصحف الوطنية موقف أحمد فتحى زغلول هجومًا عنيفًا ، وظلت لعنة اشتراكه فى هذه المحاكمة تطارده من قبل القوى الوطنية ، ولم تدافع عنه سوى صحيفة "المقطم" الناطقة بلسان سلطات الاحتلال[٢٢] . بل

إن أحداً من أصدقاء فتحى زغلول ، أو المنتمين لاتجاهه السياسى والوطني ، لم يجرؤ على الدفاع عنه ، ولم تشأ الصحيفة التى اشترك فى تأسيسها أن تكتب شيئًا عن ذكرى الحادث . وفى خطبة انتخابية لإبراهيم الهلباوى عام ١٩٢٣ تحدث إلى الناخبين قائلاً إن الناس "يعيدون مرافعتى ولا يذكرون أن المرحوم فتحى باشا زغلول شقيق سعد باشا هو الذى قبلت ذمته أن يحكم مع الآخرين بتلك العقوبات ، لأن الحكم كان بالإجماع . وقَبِل قلمه أن يسطر تلك الحيثيات ، لأنه هو وحده الذى سطر حيثيات الحكم التى تنفث لهبًا ونارًا . . . وأضاف أن فتحى زغلول بعد الحكم فى قضية دنشواى استحق المكافأة من الإنجليز فأخرجوا المرحوم إسماعيل باشا صبرى من مسند وكالة الحقانية بطريقة استبدادية ، وأجلسوا محله بطريق الترقى العظيم صاحب العزة أحمد فتحى بك زغلول بمرتب ١٢٥ جنيهاً شهرياً ، ومنحه رتبة الباشا"(٢٣) .

والواقع أن اشتراك فتحى فى هذه المحاكمة أمر يستحيل تبريره أو الدفاع عنه ، مهما بلغ من حرصه على وظيفته أو قيامه بواجباتها ، ثم إن هذا الاشتراك فى حد ذاته يعد جزءاً من موقف عام واتجاه سياسى تبناه وامتلك عليه نفسه . على كل حال لم نجد فيما قرأنا عن فتحى زغلول سوى تبرير ضعيف غامض ، لموقفه فى دنشواى ، كتبه أحد أصدقائه من القضاة ، وإن لم يجرؤ فيه على ذكر دنشواى صراحة ، ذكر فيه :

"إن فى حياة الكثيرين ممن يولون الأحكام فى مثل هذه الظروف السياسية ، التى تحف بدولة أو حكومة مثل مصر وحكومتها أسراراً تغيب عن سواد الأمة ، وقد يؤولها بعض من لا تبعة عليهم ولا مسئولية ، على ما تشتهيه أنفسهم أو تصل إليه مداركهم ، ويكون الذى أساءوا به ظناً قد أفرغ ما فى جعبة قدرته فى سبيل الدفاع عن مصلحة أمته"(٢٤) .

❊ ❊ ❊

ثم حدث أن اشتغل فتحى زغلول بتأليف شركة "الجريدة" ووضع قانونها – كما مر بنا – وكان على رأس أهدافها "عدم إثارة المسائل ذات الطبيعة الخاصة" التى دأبت الصحف الأخرى على إثارتها ، فأقضَّت مضاجع سلطات الاحتلال البريطانية بمصر ، وكذلك كان من هذه الأهداف خلق رأى عام يُقرّ ما تفعله الحكومة ، أما أسلوبها فهو "الاعتدال" الذى يناقض "التطرف" الذى سلكته الصحافة الوطنية ، من وجهة نظر الإنجليز . ومن المعروف أن هذه المبادئ تحولت إلى برنامج حزبي ، عقب إعلان تحول "شركة الجريدة" إلى حزب سياسى هو "حزب الأمة " ، ويمكننا أن نستنتج أن فتحى زغلول لعب دوره فى صياغة برنامج هذا الحزب ، الذى تجاهل مسألة الاحتلال البريطاني ، فلم ترد فى برنامج الحزب أية إشارة إلى مسألة الاستقلال ، الذى اعتبر مسألة سابقة لأوانها . . كانت فكرة الحزب تنبع أساسًا من اقتناع رجاله بأن الاحتلال قائم ، وأن زحزحته ليست بمجرد الكلام أو التفكير فيه ، أو حتى الميل إليه ، وإنما بالتعامل معه ، وفى نفس الوقت إعداد الأمة بالكفاءات التى ستؤدى إلى ذلك الاستقلال(٢٥) .

كان موقف فتحى زغلول من القضية الوطنية يدخل ضمن هذا الإطار ، ويتبنى هذا الاتجاه السياسي ، وهو موقف مستمد أساسًا من علاقته باللورد كرومر ، وقد ذكر محمد محمود أن فتحى قد انسلخ عن جماعة "الجريدة" ، لأنها أصبحت تكتب ضد اللورد كرومر(٢٦) . ومن المعروف أن الصحيفة لم تنتقد سياسة اللورد إلا بعد إبعاده عن مصر وتأكدها من عدم عودته إليها مرة ثانية ، كذلك فإن فتحى بدأ يدرك تحول ميزان السلطة لصالح الخديوى عباس بعد رحيل كرومر ، وانتهاء الصراع بينهما ، ومن هنا بدأ يتنكر للجريدة وجماعتها ، ويعتذر للخديوى عن اشتغاله بها ، بل ويتعهد بالعمل على تخريبها . . ولم

تشهد الفترة التالية موقفًا إيجابيًا له ضد الوجود البريطانى فيما بعد ، كما لم نقرأ له مقالاً سياسيًا يوضح تبنيه اتجاهًا سياسيًا جديداً حتى وفاته عام ١٩١٤ .

* * *

وحتى تكتمل صورة أحمد فتحى زغلول واتجاهاته السياسية من خلال علاقاته نرى لزاماً علينا أن نوضح علاقته بأخيه سعد ، ولم يكن فتحى على علاقة طيبة به على الإطلاق ، كما كانت بينهما غيرة ومنافسة شديدتين ، خاصة بعد أن وَشَى فتحى بأخيه لدى الخديوي ، وهى مسألة أفاض سعد فى ذكرها فى مذكراته متألماً ، فذكر أن فتحى "أراد أن يؤثر على الخديوى بجميع الطرق ، وأنه لم يبال بأخيه ولا بإخوانه فى ذلك إلا قليلاً ، وانتهيت معه بأن قلت له أن كثيراً من الناس يقولون عليك أقوالاً كثيرة ، يقولون إنك دسَّاس تسيء إلى إخوانك إذا تمكنت ولا تبالى إلا بفائدتك ، فإن كنت تعلم من ذلك شيئًا فأقلع عنه ، وإلا فاستمر على ما أنت فيه فأنت أعلم بحالك ."(٢٧) .

كذلك فقد نقل فتحى للخديو أن أخاه سعد ورفاقه أرادوا تأليف حزب سياسى على مبادئ الشيخ محمد عبده ، وأنه – أى فتحى – صرفهم عن ذلك بالعمل على تأليف شركة "الجريدة" ، فتكدر سعد من هذه الدسيسة وذكر أن فتحى وأصحابه شرعوا فى إنشاء الجريدة على غير علم منه وأنه لما دعاه للإشتراك فيها رفض ، وأضاف أن الاكتتاب لها وتحرير قانونها تم وهو غائب عن البلاد ، ثم رفض سعد أن يقف بين يدى الخديو مكذبًا أخاه ومبينًا أنه –على حد تعبيره – "دساس خائن" وبات فى كرب شديد لا يدرى ماذا يصنع وأضاف : «أسكت على هذه الدسيسة ، وربما فيها ضرر ، أو أدافع عن نفسى بالحقيقة وأضر أخي . . مركز حرج ولكننى أفضل السكوت وأفوّض أمرى إلى الله لأننى مهما دافعت فلن يجدى ذلك نفعًا ، وإنما يثبت الشبهة فينا ويوجب زيادة سقوطنا . ."(٢٨) .

كما روى سعد مرة أخرى "أن هذا الشخص لديه غيرة شديدة مني ، ويرى أن وجودى مانع له من التقدم من جهة ، ومن الاسترسال مع شهواته من جهة أخرى ، فهو يعمل على الدوام على إسقاطى لتزول من أمامه عقبة ، ولكى يفعل ما يشاء . تطمع نفسه للوزارة ، ويرى أنه أحق بها لأنه أقدر منى على القيام بأعبائها ، وأكفأ منى لأعمالها ، ويرى أن وجودى فيها مانع من ترقيه إليها . . ما ذكرت أمامه عملاً عملته بصفة وزير إلا ذكر لنفسه عملاً يشابهه بصفة وكيل . ." . ولعله ليس غريبًا ألا يكتب سعد شيئًا عن وفاة أخيه ، مثلما كتب عن آخرين ليسوا على هذه الدرجة من القرابة(٢٩) . لقد كان فتحى بحق يَنْفَس على أخيه توليه الوزارة ، وكان يعتقد بالفعل فى قرارة نفسه ، أنه أكفأ منه لتوليها ، لكنه لم يُقدر الاعتبارات الأخرى التى على أساسها تتألف الوزارات ، وكان سعد بطبيعة الحال أقدر على فهم توازنات القوى واتجاهات رياح السياسة .

* * *

هوامش الفصل الثانى

(١) حول جماعة محمد عبده ، نشأتها ودورها ، انظر كتابنا "حزب الأمة ودوره فى السياسة المصرية" ، ص ٣٤-٣٥ .

(٢) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ١ ، ص ١٠٦٤ ، وحول صداقة محمد عبده لفتحى كذلك صفحات ٩٩٦ ، ص ١٠٠٦ . وقد أضاف أن الأستاذ الإمام كان قد عهد إلى فتحى بترجمة كتاب الأستاذ جوستاف لوبون حضارة العرب ، فعزم على ذلك ، ثم توفى الأستاذ ولم يفعل ، وقد ترجمه بعد ذلك محمد أفندى مسعود . (ص٩٤٨) وانظر أيضاً : آدمس : الإسلام والتجديد فى مصر ، ص ٢٠٤ .

(٣) أحمد زكريا الشلق : حزب الأمة ، ص ٣٥ .

(٤) مذكرات سعد زغلول ، ك (٦) ، ص ٢٨٥ ? ص ٢٨٧ .

(٥) أحمد زكريا الشلق : المرجع السابق ، ص ٤٠ ، وكذلك محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ، جـ ١ ، ص ٢٣٣ .

(٦) مذكرات سعد زغلول ، ك ٧ ، ص٣٠٢ .

(٧) الجريدة ١٧ أكتوبر ١٩٠٧ (أسماء الموظفين) ، ٢٦ يناير ١٩٠٨ (أسماء علماء القانون الذين سنوا قانون الشركة ، ومنهم أحمد عفيفى وعبد العزيز فهمى ومحمود أبو النصر ومحمد محمود خليل) .

(٨) مذكرات سعد زغلول ، ك ٧ ، ص ٣٠٩ .

(٩) عبدالخالق لاشين : سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية حتى عام ١٩١٤ ، ص٨٧ .

(١٠) مذكرات سعد زغلول ، ك ٧ ، ص ٣١٠ .

(١١) عبدالخالق لاشين : المرجع السابق ، ص ٢٤٨-٢٤٩ .

(١٢) مذكرات سعد زغلول ، ك ٣٠ ، ص ١٦٤٨ .

(١٣) نفس المصدر ، ك ٧ ، ص ٢٩٨ .

(١٤) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، الجزء الثاني ، القسم الثاني ، ص١٤٣ . وجورست هو المعتمد البريطانى الجديد الذى خلف اللورد كرومر .

(١٥) انظر مذكرات سعد زغلول ، ك ٦ ، ص ٢٨٦ – ٢٨٧ .

(١٦) محمد جمال الدين المسدي : دنشواي ، ص ٨٦ .

(١٧) ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ، جـ (٥) ق (٣) ص ٣٥٨ . وقد عرض لقضية دانشواي ، ص ص ٣٥٧- ٣٧٥ .

(18) Cromer, Abbas II, p. IX.

(19) Al-Sayyid, Afaf L., Egypt and Cromer, p. 137.

(حول دفاع لطفى السيد) ثم صلاح عيسى : حكايات من مصر ، ص ٢١٣-٢١٤ . (حول إدعاء الهلباوى) .

(٢٠) محمد جمال الدين المسدي ، المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٢١) نفس المرجع ، ص ٨٩ .

(٢٢) انظر المقطم عدد ٢٥ يونيو ١٩٠٧ . ويذكر محمد محمد حسين فى كتابه الاتجاهات الوطنية جـ ٢ ، ص ٤٠٧ ، أن فتحى زغلول هو المقصود بقول شوقى فى قصيدته فى وداع كرومر :

أم من صيانتك القضاء بمصر تأتى بقاضى دنشواى وكيلا

(٢٣) محمد صبري : الشوقيات المجهولة ، آثار شوقى التى لم يسبق نشرها ، الجزء الثانى ، الطبعة الثانية ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ٢٠٠٣ ، ص ٨٣-٨٤ .

(٢٤) الآثار الفتحية ، ترجمة لفتحى زغلول بقلم القاضى صالح بك جودت بمحكمة مصر الأهلية ، ص ٥-٦ .

(٢٥) حول نشأة حزب الأمة وبرنامجه ، انظر كتابنا : حزب الأمة ودوره فى السياسة المصرية ، ص ٦٠-٨٢ .

(٢٦) مذكرات سعد زغلول ، ك (٧) ، ص ٣١٠ .

(٢٧) مذكرات سعد زغلول ، ك (٧) ، ص ٣١٢ ، ٣١٦ .

(٢٨) نفس المصدر ، ك (٦) ، ص ٢٨٥-٢٨٦ .

(٢٩) عبدالخالق لاشين : سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية حتى عام ١٩١٤ ، ص ٢٤٦- ٢٤٨ .

اختلاف
(الناس فى المقاصد والأعمال)

من الناس من تلوح له المنفعة الخصوصية ضمن منفعة عمومية ، فلا يلتفت إلى الأولى ، ويجدّ فى إخراج الثانية إلى عالم الوجود قصد أن ينفع أبناء جنسه أو نوعه أو صنفه أو وطنه ، على حسب تفاوت أفراد الرجال فى علو الهمم وبعد النظر ، ومثل هذا وإن كان وجوده فى العالم الإنسانى غير مستحيل ، إلا أنه لا يكاد يوجد فى كل طبقة من طبقات التاريخ الزمانى إلا أفراد قليلين جداً ، إن لم نقل أن وجوده عقلى كوجود مدينة أفلاطون الكاملة ، حيث وصفها بأوصاف قلماً تكون متحققة بها كلها فى عالم العيان ، ولكنا مع ذلك لا يسعنا أن ننكر أنه وجد ويوجد فى كل زمان أناس يقربون من مثل هذا قرباً يكاد يجعلهم من هذا القبيل يفضلون المصلحة العامة ويخدمونها على قدر ما يصل إليه إمكانهم ، ويبذلون نصحهم للكافة ويسهرون الليالى الطوال طلباً لترقية أبناء نوعهم وإنقاذهم من الهمجية . ولم ينلهم من السعى فى هذا السبيل غرض من الأغراض ، فعاشوا فقراء وهم يحصلون لإخوانهم الغناء ، وقضوا حياتهم فى الخمول وهم يطلبون لجنسهم الرفعة ، وماتوا كذلك غير مبالين بما لحقهم فى هذه الأعمال من المشقات والمقاومات والمعارضات ، وهذا القسم على كل حال نادر الوجود ، إن وجد منه فى أمة عدد قليل بلغت به أوج الكمال ، وتحلت بشعائر المدنية بين الأمم ، ورمقتها الأعين بالهيبة والإجلال . ومن الناس من يطلب فائدة نفسه الخاصة من طريق منفعة العموم ، فتكبر نفسه عن أن يحصل لها شيئاً مخصوصاً بدون أن ترجع منه مصلحة لمواطنيه ، بحيث لو

عرضت له منفعة ولم يكن فى ضمن المنفعة العامة تنحى عنها ورمقها بعين الاستصغار ، وطلبها من الطريق الثانى ، علماً منه بأنه فرد من الهيئة الاجتماعية تعود منافعها عليه بحكم الضرورة والوجدان ، إلا أن هذا القسم تختلف مطالبه ، فنوع منه يظهر بأول النظر أنه مقتصر على جلب العموميات ، وهو من يكون مطلبه وغرضه من العقليات ، كالشهرة والجاه وبعد الصيت وتخليد الذكر بعد الموت ، إلى غير ذلك مما يقصده العقلاء ، ولا تلفت إليه العامة من الناس . ونوع آخر منه تظهر ثمرات جده وتعبه عليه ، كما تظهر على بقية إخوانه ومواطنيه الذين كان سعيه لأجلهم ، وكان هو واحداً منهم فى اجتناء الفائدة .

ومع ذلك فكل من النوعين يلتقى مع صاحبه فى أنه خدم العامة وخدم نفسه على أنه واحد منها بدون أن يفضلها على واحد ممن عمل لأجلهم ، وكلما أبرز عملاً من أعماله إلى عالم الظهور وأحست العامة بلذته وفائدته ، زادت الناس فى الإقبال عليه ، فيجدّ فى العمل ليتمكن فى نفوسهم من المنزلة والاعتبار ، وقد يكثر هذا القسم بنوعيه فى بعض البلاد ، فيكون بين أهليها بمنزلة الولد الرحيم أو المربى الشفوق ، يُقتدى بأعماله ويُهتدى بأقواله ، فيأخذ عدده فى الازدياد . وكلما كثرت أفراده انتقلت الأهالى إلى مرتبة جديدة من الأخلاق تحبب إليهم منافع إخوانهم ، وارتقت البلاد إلى درجة من التقدم والتمدن . وهكذا إلى أن تبلغ غاية تكون بها فى عداد الممالك المتمدنة ، ويُحسب أهلوها من الأمم المتقدمة ، ونسبة تقادم الممالك فى التمدن هى على نسبة تباعد الأزمان التى ظهرت فيها أمثال أولئك الرجال ، فكلما كان زمنهم بعيد العهد ، كانت الأمة أعرق فى التقدم وأدخل فى باب الانتظام .

ومن الناس من يقتصر على اجتلاب ماله فيه المنفعة الخاصة ، ولا يكون من همه إصلاح العموم ، ولكنه مع ذلك لا يحب ضرر غيره ، بحيث لو عرضت

له منفعة وكانت تضر سواه تحاشاها وتباعد عنها ، فلا يرضى بخير نفسه أن يترتب عليه الإضرار بأحد من الناس . ومثل هذا وإن كانت همته قاصرة ونظره لا يتجاوز ذاته ، إلا أنه لا ينتج من وجوده ضرر بالعباد ، ولا خلل فى البلاد ، بل يمكن أن يقال إن هذا القسم تعود منه أيضاً فائدة للعموم ، فإنهم وإن أحبوا ذواتهم لا يرضون كما قلناه بمضرة سواهم ، ومن كانت هذه صفاته لا يسعه إلا أن يجدّ ويجتهد فى أسباب الثروة والغناء لنفسه ، وليست الطريقة الموصلة له إلى هذه الغاية إلا طريق الإقبال على الأعمال البدنية ، وتوجيه الفكرة إلى توسيع تجارتهم وصنائعهم . ولابد لهؤلاء من أن يغبطهم مواطنوهم ومعاشروهم ، فيسيروا سيرهم ، وينسجوا على منوالهم ، فتتمهد بواسطتهم سبل العمران ، وتتقدم الحرف ، وتنمو التجارة والزراعة والصناعة ، وينجم عن سعيهم فى منافعهم الخاصة فوائد عمومية ، وإن كانت غير مقصودة لهم بالذات ، وكانوا غير ناظرين إليها فى أصل السعى المخصوص .

ومن الناس من لا يحب إلا ذاته ، فلا يبالى فى جلب منفعته بإضرار غيره ، وما عليه إن صلح الناس أو فسد النظام ، بل من هذا القسم من يحب الإفساد ويجتهد فى التخريب لأجل أن ينال فائدة وهمية أو خيالية ، ومثل هذا من الجهل المركب والغباوة الكلية بمكان عظيم ، وهو الداء العضال فى جسم الهيئة الاجتماعية الذى يجب استئصاله من عالم الوجود ، وهو تشويه الظاهر فى وجه العالم الإنسانى ، والعضو الأشل فى بدن الأمم ، تلزم ملاشاته بالمرة لتستريح منه الممالك والبلدان . ولقد كانت البلاد المصرية محلاة بوجود الأقسام الثلاثة الأولى من الرجال ، وكانت لذلك نهجت منهجاً معتدلاً سارت به بين الأمم موفقة بين مصالحها من الممالك ، حتى ظهر فيها القسم الأخير الشرير ، وهو الفئة العسكرية الباغية الطاغية قاتلها الله ، فأخذ يسعى لمقصده المنحط غير مبال بما يلحق البلاد من الأضرار ، والأنفس من الهلاك ، والأموال من التلف

والضياع . وانتشرت أفراده فى القطر تقتلع أصول ثروته ، وتبتلع مادة حياته ، وتجتث جذور الإصلاح التى غرستها أيدى الرجال النافعين . وقد استعملوا كل طريق من طرق الشر للإفساد ، والحصول على أغراض شخصية دنيئة لا يقصدها إلا الأشرار ، فعطلوا سبل التجارة ، وأقفلوا أبواب الصناعة ، وقطعوا طريق الزراعة ، وفتحوا أبواب الوحشية والهمجية ، وأبادوا النظام ، وأخلوا بأوضاع الترتيب التى أسستها عقول الرجال الناصحين .

ولكن قد أبى الله إلا أن يتم ما أراده لهذه البلاد من الخير ، على رغم تلك العصابة الضالة ، فيسر للجناب الخديوى المعظم ، أيده الله ، الذى هو أس الإصلاح ومظهر المنافع العمومية ما أراده لبلاده من الصلاح ، ولرعيته من الخلاص من شرور هاته الفئة العاصية الخارجة عن الطاعة ، ثم بلغ جنابه الرفيع ما كانت فكرته العالية على الدوام متوجهة إليه ، وهو سلامة العاصمة من مكايد أولئك الأشرار ، ثم أكمل هذه النعم لجنابه العالى بتوفيقه إلى تأليف هيئة النظار من رجال شهدت لهم آثارهم بأنهم من أولى الفضل وأرباب المعارف ، واعترف الناس بأنهم خلصوهم من كثير من المشاكل ، وللكل فيهم آمال زائدة بالإصلاح .

أدام الله الجناب الخديوى الأفخم ، يرفل فى حلل النصر والتأييد ، وأعز أنجاله الكرام ، ورجال حكومته الفخام ، لتتمع البلاد بالمدينة والعمران ، وتجنى العباد ثمرات توجهاتهم الكريمة وعواطفهم الرحيمة ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

❊ ❊ ❊

ماهية اللغة

الفكر حركة نفسية يحتاج فى ظهوره إلى معونة الجهاز المخصوص الذى يكون به الكلام . وعليه فالكلام هو حركة ذلك الجهاز المنبعثة عن مجرد الطبع أو المدفوعة بالإرادة للتعبير عن حركة من حركات النفس ، ينتج من هذا أن الكلام يتنوع باختلاف الشارات التى تدل على الأفكار ، وأن تلك الشارات تنقسم إلى قسمين : طبيعية وصناعية . فالأولى هى التى تصدر عن الذات من حيث هى ، أى بمقتضى وجودها المادى . وكل شارات هذا القسم عرضية ، مثل شارات اليد والرأس والعين وبقية الأعضاء ، ومثل الأصوات التى ليست ألفاظا والكلام أى النطق . والثانية خارجة عن الذات ، وهى تحدث من تأثير الإنسان فى الماديات الخارجة عنه . وكل شارات هذا القسم جوهرية ، بمعنى أن لها دواماً ، طويلاً كان أو قصيرًا ، كالأعلام والرسم والحفر والكتابة .

ومما يتقدم يتبين أن الكلام الطبيعى عام ، لكونه مفهوماً بذاته من جميع الناس ومن الحيوان أحياناً ، كما هو الحال بالنظر لشارات الأعضاء ، وأصوات الغضب ، أو الاستحسان ، من غير أن يكون هناك اتفاق سابق على مفهوم تلك الشارات .

وعلى خلاف ذلك الكلام الصناعى أو الاتفاقي ، لأنه عبارة عن مجموع الألفاظ المخصوصة الموضوعة للمِعانى المخصوصة ، وعن التراكيب أو الصيغ الناتجة من تأليف هذه الألفاظ لتوصل إلى الذهن ، بواسطة الأذن أو العين ، معانى مخصوصة متفقًا عليها . وقد يتأتى أن يكون الكلام الصناعى عامًا ، أى أن كل

الناس يدركون المراد منه ، كالرسم مثلاً . وعلى هذا يتضح خطأ تعريفهم اللغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم .

والصحيح أن اللغة هى مجموع العادات المخصوصة التى تجرى عليها كل أمة فى التعبير عن أغراضها بواسطة الكلام أو الكتابة وتقدم بيان معنى الكلام .

ولا يصح إطلاق إسم اللغة على ذلك المجموع ، إلا إذا كانت النسبة تامة بين اللفظ ومدلوله ، إلا أن قوة اللغة متوقفة على شدة المطابقة ، بحيث أن الأذن أو العين تَرْسم فى ذهن السامع أو القارئ صورة المدلول كما هى ، ولا يتم ذلك إلا باجتماع شروط ثلاثة :

الشرط الأول : أن يكون لكل مدلول علامة خاصة به تدل عليه دائمًا ، ولا تدل على غيره أبداً .

الشرط الثانى : أن تكون هذه العلامة قابلة للتغير بتغير المدلول وتبعًا له .

الشرط الثالث : أنها تكون قابلة للاشتقاق كمدلولها ، فإذا اشتق منه مدلول اشتق منها علامة دالة عليه بالشروط عينها .

وبناء على ما تقدم تكون شروط اللغة الحقيقة بهذا الإسم ثلاثة أيضًا :

الأول : أن يكون تعبيرها محكمًا ، وذلك عبارة عن إتمام المطابقة بين الدّال والمدلول ، ولا سبيل إلى هذا إلا إذا سهل استعمال اللفظ على قدر المعنى ، ولم يزد المعنى عن اللفظ المستعمل لأجله ، وهذا الشرط صعب التوفر ، فما وفقت لغة حتى الآن لنوال هذه المزية ، اللهم إلا لغة علماء الرياضة ، بل إن اللغات الأخرى لن تنالها أبداً .

الثانى : الملابسة ، وهى الخاصة الموجودة فى الألفاظ أو التراكيب أى الصيغ ، تلك الخاصة التى يدرك بها الفاهم نظائر المدلول ونقائضه ، والملابسة تقتضى تحليل الفكر الإنسانى ، وذلك غير ميسور عادة فى اللغات الأصلية إلا نادراً .

الثالث : الوضوح التام ، وهو يرجع للشرطين السابقين ، ولصناعة ترتيب الألفاظ ، وتركيب الجمل ترتيبًا وتركيباً ، ينتفى معهما الإبهام ويرتفع الشك والالتباس . ومن اللغات ما تميل بأهلها إلى الأغرب فى التعبير ، وهذا هو السبب فى ظلمتها وتعسر فهمها ، وكلما كان القول طبيعيًا ، أى بسيطاً ، ازداد وضوحًا ، فالبساطة هى أمثل طرق الكلام على أنها طريقة العلم والواقع ، وهى التى يسهل بها التعبير عن الأفكار وحركات النفس كما ينبغي .

وكأنى بحضراتكم ، وقد استنتجتم مما ذكرته الآن ، خطر مذهب التجوز أو الاشتراك فى اللغة ، وذكرتم أنه يذهب بجمالها ، ويخفى من وضوح دلالتها ، ويجعلها ثقيلة على أهلها بعيدة المنال على طلابها من الأمم الأخرى .

سمعت فى الاجتماعين الماضيين كلاماً كثيراً فى اللغات الأجنبية ، وأن لها أصلاً أو أصولاً ترجع إليها وتستمد روح التجدد منها ، فأهلها فى حل مما يفعلون . وأما نحنٍ فلا أصل للغتنا ويبنون على هذه المقدمة نتيجة ، هى أنه يجب علينا أن لا نعرب كلمة أعجمية لنضيفها إلى لغتنا العربية .

الحق أنى ما فهمت النسبة بين تلك المقدمة وهذه النتيجة ، فإنى أنظر إلى اللغة اللاتينية التى هى أصل لغات أمم أوربا المعروفة بهذا الإسم ، من فرنساوية وتليانية وأندلسية وغيرها ، فأجدها لغات ممتازة تماماً عن ذلك الأصل ، بل أجد الفرنساوى من حيث هو لا يعرف كلمة واحدة من أصل لغته ، وكذلك بقية من ذكرنا . وأرى أن كل لغة حية هى لغة مستقلة قائمة بنفسها ، لها قواعد خاصة

بها ، وتراكيب وصيغ تميزها عن أصلها تماماً ، فإذا استعاروا لمحدث جديد إسمًا من ذلك الأصل ، فإنما هم يستعيرونه من لغة أعجمية بالنظر إلى لغتهم . ألا ترون أنهم لا يقصرون الاستعارة على اللغة اللاتينية ويتعدونها إلى اليونانية القديمة ، وأحياناً يستعيرون كلمتين وينحتونهما ويصقلونهما ، ويدمجون هذا المزيج فى لغتهم ، فيصير جزءاً منها ويفسحون له فى كتب اللغة محلاً بين كلمتين أصليتين ، بحسب ترتيب حروفه الأبجدية . إنهم يعلمون أكثر من هذا أن لكل بلد عادات فى أكلها وسكناها ولباسها وأطوارها ، ويتبع ذلك وجود أسماء عند قوم لمسميات لا يعرفها قوم آخرون ، إلا أن التجارة وطرق المواصلات تنقل هذه المسميات ، أو تجعلها تشاهد فى أماكنها من النازحين إليها ، فيرى أهل البلد ما يروق لهم من بعض تلك الخصوصيات لأهل البلد الآخر ، ولا يجدون من لغتهم نصيراً على التعبير عنه تماماً ، لكنهم لا يحارون ولا يعقدون الاجتماع تلو الاجتماع ، ولا يفترقون شيعًا وأحزابًا ، بل يقدمون على تناول المسمى واسمه ويدرجون عليه من ساعتهم ، فيمتزج بلغتهم ويعرفه الكل ويتحرون فى حديثهم أن يلفظوه كأنهم فى نطقهم به من أهله ، والأمثلة على ذلك لا تحصى يعرفها كل من تعلم لغة واحدة أجنبية . هم يعملون ذلك حتى فى العلوم ، فترى الحكيم الفرنساوى وهو يقرر مذهبه عند ما يأتى على ما يخالفه من مذاهب الألمان ، إذا وصل إلى معنى خاص بأحدهم لم يفكر أن يعبر عنه بغير لفظه الألمانى ، وهكذا ثم يذكر بهامش كتابه معناه .

ما كان هذا ليفسد لغة من تلك اللغات ، ولا يثير عاطفة الحنان والإشفاق عليها ، بل ما ازدادت لغاتهم بهذا إلا طلاوة ويسراً ، بل تكاد هذه الطريقة تجرى عند الأمم العربية عادة لتكون الألفاظ الغريبة عن لغتهم برهاناً على سعة مداركهم ورحب صدورهم لكل نافع وكل مفيد ، ولتكون دليلاً على مصدر المسمى ومذكورة بجزء من ترجمته .

قالوا إن ذلك جائز عندهم لتماثل أحرف هجائهم واتحاد صورها وأشكالها ، وأما نحن فلا قبل لنا على عمل ما يعملون لاختلاف أحرف هجائنا وصورها وأشكالها ، ولست أرى فى هذا الاعتراض إلا أنه دليل أحد أمرين ، فإما شعور بعجزنا عن المجاراة لفتور فى همتنا ، أو قصور فى معارفنا ، وإما أن أحرف هجائنا وأشكالها وصورها محتاجة هى أيضًا إلى الإصلاح ، لنتمكن من تناول كلمات الغير بأشكال وصور تجعلنا ننطق كلماتهم كما ينطقون ، وننقل عنهم كما هم عن بعضهم ينقلون .

نحن إما عرب أو مستعربون ، وإما أجانب عن لغة العرب أو مولَّدون . فإن كنا الأولين ، فلنا حقنا فى التصرف بلغتنا كما تقتضيه مصلحتنا ، وإن كنا مستعربين ، فبحكم قيامنا مقام أصحاب هذه اللغة وبكوننا ورثناها عنهم بعد أن بادوا ، فليس من له أن ينازعنا فى استعمال ما كان مباحاً لأبنائنا من قبلنا ، وإن كنا أجانب أو مولَّدين ، فمن له أن يسيطر علينا ويحرمنا ثمرة الكد فى حفظ هذه اللغة وتفضيلها على غيرها من سائر اللغات ، فيلزمنا بالبقاء على القديم ، ويحكم علينا بالجمود واعتقال اللسان .

أخذ العرب العلوم عن أهلها ونقلوها إلى لغتهم ، فلما وجدوا منها استعصاء فى بعض المواضع ذللوها ، وأخضعوا الغريب عنها لإحكامها ، فأُيسرت ودرجت بعد الجمود ، فكانت لهم نعم النصير على إدراك ما طلبوا من نور وعرفان .

نسينا نحن أن زماننا غير زمانهم ، فكانوا أصحاب حول وطول وذوى مجد وسلطان ، ونحن على ما نعلم من الضعف والانزواء ، على أنهم فى عزهم وبعد فخارهم وتمكنهم من أنفسهم لم يعتزوا بلغتهم فنفروا من العجمة لأنها عجمة ، بل استخدموها حيث وجب الأخذ بها تمكينا للغتهم وحذراً من أن

يصيبها الوهن إذا قعدوا بها عن مجاراة تيار التقدم ، وهم أولو الرأى فيه ، وخوفاً من أن يعيقهم الجمود فيها عن حفظ مركزهم العظيم بين الأمم التى كانت تعاصرهم . أيجوز لنا أن نتخلف عن السير فى طريقهم والاسترشاد بهديهم والعمل بطريقتهم ، بحجة أنهم انقرضوا وبادوا ، فلا حق لنا فى متابعة الرقي ، ولا يجوز أن نخطو بعدهم خطوة إلى الأمام ، لكن من الذى استأجرنا حراساً من الحراس على هذه الوديعة ، وأى قوة أخضعتنا على الوقوف هذا الموقف ، موقف الاستكانة وقطع الرجاء وفقدان الهمة وانحلال العزائم؟ أنقص فى الإفهام أم قصر فى الأجسام أم جهل بأنا من البشر لنا كل حقوق الإنسان؟

ليس لنا أن نتمسك بالقديم لقدمه ، وإن أصبح عديم الجدوى ، وإلا فأولى بنا أن نكف عن الدروس والمطالعة ، وأن نكتفى من كل شيء بما ورثنا من الآباء ، لنعيش كما عاش الأولون . غير أنى أرجوكم أن تتعلموا الصبر ، فلا تجزعوا إذا أصابتكم مصائب التقدم فتركتم آخر القوم ، ولا تحزنوا إذا هصرتكم عوامل الرقى فمنيتم بمن يقف متفرجًا عليكم ، وأنتم كالصور المتحركة الناطقة لكنها تتحرك بحركة هى عبارة عن اهتزاز الشيء مكانه وتنطق بلغة دائرة قد خلت من العلم الذى أصبح دارجًا على ألسنة المتفرجين .

جزع خصوم مذهبنا على اللغة العربية ، وحسبوها طعاماً سهل التناول والهضم فى معد اللغات الأعجمية ، فاستجاروا من التعريب ، وصاحوا أننا لا نطيق إسمًا أعجميًا يدخل عليها .

أليست هى تلك اللغة الحافلة بالألفاظ والتراكيب العالية والقول الفصيح المصونة بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهى لن تتأثر ببعض كلمات تدخل عليها فى كل عام ، بل إن هذا العمل مما يؤيدها ويشد أزرها ويرفع مقامها بين اللغات ، فلا يطمع الأعاجم فى اعتبارها من اللغات الميتة .

قالوا ذلك يفسد علينا لغة القرآن ، وما أشد ما أجاب به عن هذا الاعتراض حضرة الفاضل السيد رشيد أفندى ، فلا خوف على القرآن ما دام فى الوجود مسلم . ألا ترون أن القرآن محفوظ مصون عند من لم يعرف العربية من المسلمين . إليكم الترك والهند والصين والقوقاز والروسيا ، تلك أمم تعد خلقاً كثيراً من المسلمين ، لا يعرف الواحد منهم غير لغة أمته ، وهو مع ذلك يحرص على القرآن أشد من حرص الجبان على دمه .

أيعجزكم أن تحافظوا على القرآن بيمينكم ، وتفسحوا المجال فى لغتكم للتقدم باليسار ، وتنالوا السعادتين ، وتكونوا من الناجحين فى الدارين .

قالوا العلم نافع ، قالوا كثير منه مخالف للدين ، قالوا الحضارة تهددنا فلنتقيها بها ، قالوا هى تخالف الدين . قالوا حدثت مستحدثات فسموها ، قالوا حرام عليكم إن كنتم فاعلين . من هذا قال الفرنج عنا إنا قوم جامدون وما جمودنا إلا من الدين ، فصحنا مع هذا وقلنا لهم بل أنتم قوم ظالمون . مالنا وللدين نجره فى كل أمر ونقيمه حاجزًا فى وجه كل باحث ، حتى فى الأمور التى يأمر هو بتناولها . يأمرنا الدين بتعلم ما خلق الله ، وأن نسير على سنة التقدم التى سنَّها للبشر ، ونحن كل يوم فى إحجام بدعوى يعلم الله مقدار بعدها عن الحق والصواب .

عليكم بالتقدم ، فادخلوا أبوابه المفتَّحة أمامكم ، ولا تتأخروا فلستم وحدكم فى هذا الوجود ، ولا تقدم لكم إلا بلغتكم ، فاعتنوا بها وأصلحوها وهيئوها لتكون آلة صالحة فيما تبتغون ، لكن لا تكثروا من الاشتقاق الخارج عن حد القياس المعقول . ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتعدد الاشتراك أو التجوز ، ثم لا تقفوا بها موقف الجمود والعجمة تهددها على ألسنة العامة ، وهى لا تلبث أن تدخل على لغة الخاصة ، أقيموا فى وجه هذا السبيل الجارف سداً من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة والتعريب عند الضرورة ، لتكونوا من الناجحين .

ذوات الأذنـاب
وخرافـات العامـة

لما اضطرب الناس وانزعجوا بظهور ذات الذنب التى رأوها منذ ثلاثة سنين تدور حول القطب الشمالى ، واشتد بهم الخوف والرعب بما نشرته الصحف الإفرنجية والعربية من التهويل فى هذا الأمر ، وفى وقوع المشترى فى مقابلة الشمس فى شهر نوفمبر من تلك السنة ، حيث قالوا أن هذه الحادثة الفلكية تستوجب فناء العالم ، طلب إلى بعض الأخوان أن أكتب شيئاً فى هذا الأمر ، لتطمئن به القلوب ، ولتزول الأراجيف ، فأجبته وكتبت هذه الأسطر .

إن جميع الأمم السالفة ، خصوصاً قدماء المصريين والفرس والكلدانيين ومن نقلت عنهم العلوم والمعارف ، كانوا يعتقدون أن العالم الأرضى وجميع ما يطرأ عليه من التقلبات فى كلياته وجزيئاته ، إنما هو ناشئ من تأثير العالم العلوى عليه ، فكانوا يرون أن ما يحدث فى سكان أهل الأرض من أمراض وأوبئة وموت غير معتاد ، وما يقع بينهم من حرب ، وما يعترى بعض أجناس الحيوانات من الوباء والفناء ، وما يحدث فى أسعار الحبوب والأصناف من غلاء ورخص ، وغير ذلك من الأمور ، حتى موت الملوك وأشراف الناس وأمرائهم ، إنما هو منوط ببعض الحوادث العلوية . واستمر هذا الأمر بين الناس ينقله الخلف عن السلف ، جيلاً بعد جيل ، حتى عم وفشا وكثرت فيه التآليف ، وانتشر بين أهالى أوربا ، فصار أهل الأرض فيه سواء ما بين متمدين وخشن ، وكانت ذوات الأذناب لها الحظ الوافر فى هذا الأمر ، فكانوا يعتقدون أن ظهورها يدل على وقوع الحروب ، أو حدوث الوباء فى الناس ، أو فى الحيوانات ، أو على حصول

القحط وغلاء الأسعار ، وغير ذلك مما دونوه فى كتبهم ، وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن ذوات الأذناب عبارة عن أبخرة ودخان تتصاعد من الأرض ، وتتجمع فى الهواء بكميات وافرة ، ثم تعلو فيه وتحترق بسبب ما ، ويستغرق الاحتراق جملة أيام أو جملة أسابيع ، حتى إذا تم وانتهى انعدمت ذات الذنب ، وكانت أحكامهم فيها مبنية على هذا الاعتقاد ، فكانوا يقولون إن احتراق الأبخرة والدخان المكونة لذات الذنب فى جونا يستوجب فساد الهواء ، ومتى فسد الهواء فسدت أمزجة الناس ولحق الفساد جميع من حياتهم منوطة بالهواء ، من حيوان ونبات ، كل منهما على حسب استعداده وبعده أو قربه من البقعة الواقع فيها الاحتراق ، أعنى مكان ذات الذنب ، فإذا لحق الفساد أمزجة الأمراء والملوك نشأت عنه الحروب ، وإذا وقع فى عموم الناس حصلت الأمراض والأوبئة ، أو فى الحيوانات حصل فيها الموت والهلاك ، أو فى النبات حصل القحط والغلاء ، وغير ذلك من المزعجات والأراجيف بين عموم الناس إلى آخر القرن الحادى عشر من الهجرة ، أى إلى سنة ١٧٨٢ مسيحية ، حتى ظهر الكوكب ذو الذنب المشهور باسم (هالى) ، وكانت العلوم قد أخذت فى التقدم فى أوربا ، والآلات الفلكية تحسنت فيها ، فرصد هذا الكوكب ذو الذنب كثير من علماء ذلك الوقت ، وحسبوا الطريق الذى يتبعه فى سيره من بعد الرصد ، وعينوه بالضبط والتحرير ، فوجدوا أن هذا الكوكب يدور حول الشمس كالكواكب السيارة ، إنما مداره قطع ناقص مستطيل جدا يتجاوز كوكب نبتون فى غاية بعده عن الشمس ، فإن غاية بعد ذى الذنب المذكور عن الشمس تبلغ قدر بعد الشمس عن الأرض أكثر من خمس وثلاثين مرة . ومعلوم أن بعد الشمس عن الأرض نحو أربعين مليوناً من الفراسخ التى قدر الواحد منها أربعة آلاف متر .

هذا ولما يصل الكوكب ذو الذنب المذكور حضيضه يكون بعده عن الشمس نحو نصف بعد الأرض عن الشمس ، ويتم ذلك الكوكب دورته حول الشمس فى خمس وسبعين سنة ، وآخر ظهوره كان سنة ١٨٣٥ مسيحية ، وظهوره القابل يكون فى سنة ١٩١٠ مسيحية .

ويثبت بالبداهة ، بعد رصد هذا الكوكب وحساب مواضعه فى مداره حول الشمس ، فساد وبطلان ما كان الناس يعتقدونه من إحكام ذوات الأذناب ، ومن صلابة السموات ، وكونها من بلور على رأى أرسطاطاليس أو من ذهب وزمرد ، كما يزعمه آخرون . فإن وجود ذلك الكوكب ، وهو فى غاية قربه من الشمس على قدر نصف ما بين الشمس والأرض ، أعنى عشرين مليوناً من الفراسخ وراء كرة الهواء دليل قطعى على تكوينه من مواد علوية لا نسبة بينها وبين الأبخرة والأدخنة الأرضية . وبما أن الأراجيف والتهويلات التى ينسبها المنجمون إلى ظهور ذوات الأذناب ، إنما هى مبنية على اعتقاد تكون تلك الحوادث داخل الجو من الأبخرة والأدخنة الأرضية ، ثم من احتراقها فيه وفساد الهواء بسبب هذا الاحتراق . وقد ظهر بطلان هذا الاعتقاد فجميع ما أنبنى عليه من الأحكام والأمور المزعجة فاسد لا صحة له ، ويؤيده أيضاً كثرة ظهور ذوات الأذناب ، فإنه ما من سنة تمضى إلا ويظهر فيها كوكب أو اثنان أو ثلاثة فأكثر من ذوات الأذناب ، إنما غالبها لا يرى إلا بالمناظير ، وكلها تدور حول الشمس كالسيارة بعيدة عن كرة الأرض والهواء بملايين كثيرة من الفراسخ ، تابعة فى سيرها المنتظم جهات شتى غير جهات السيارة (وكل فى فلك يسبحون) ، فتخترق ذوات الأذناب السموات السبع ، وتمر فى خلالها من غير مانع يمنعها ، أو يخل بنظام حركاتها . ومن ثم ثبت لدى الشهير (كبلير) أولاً ، وأكده الفلكيون بعده ، برصد وحساب ما ظهر من ذوات الأذناب ، أن السموات ليست أجساماً صلبة

من بلور كما كان يعتقده أرسطاطاليس ، أو من فضة وذهب وزمرد وغيرهما كما يعتقده آخرون ، لأنه لو كان الأمر كذلك ما اخترقتها تلك الكواكب الذنبية ، وما امتدت مداراتها إلى ما وراء السماء السابعة (ويخلق ما لا تعلمون) .

وأما ما قيل من كون وجود المشترى والشمس والأرض على استقامة واحدة فى شهر نوفمبر من تلك السنة يوجب فناء العالم ، فهذه خرافات محضة ، ولا تخطر ببال من له أدنى إلمام بالعلوم الفلكية . فإنه ما من سنة تمر إلا ويحصل فيها كثير من هذه الأحوال الفلكية بين النجوم والكواكب السيارة وذوات الأذناب والشمس والقمر والأرض ، ولم ينشأ عنهما أدنى تغيير فى العالم على ما حققته الأرصاد والحسابات والتجربة .

الحشيــش

هو من الجواهر المخدرة ، لا يخلو من السموم ، وخاصيته التأثيرات المضرة بالأبدان والعقول والملكات . أما الأول فإنه يحرق الدم ويوقف حركته الطبيعية ويعوقها عن الانتشار فى جميع أجزاء البدن ، كما تتطلبه شريعة الحياة وتقتضيه نواميس التركيب الحيوانى ، وحينئذ يقع الخلل فى توزيع الغذاء على جميع الأجزاء ، فتضعف الأعضاء وتفسد نظام البنية ، وتستولى العلل والأسقام على عموم البدن ، ويؤول به الحال إلى الانحلال . ولذلك ترى المعتادين عليه فى حالة سيئة ، يقاسون ألم الاختلال ، ويتحملون مضض الأمراض . تعلو وجوههم الصفرة والكدرة ، ويتخلل أجسامهم النحول والذبول . يرددون فى شهيقهم أنين الضجر ، ويرجعون فى زفيرهم أصوات التوجع والاضطراب ، ويعقد دخانه وأبخرته على عيونهم سحباً كثيفة ، ويغشى نواظرهم بحجاب العماء . فإذا أرادوا النظر إلى شيء حملقوا بحدقاتهم وأداروها بين الجفون ، لعلها تدرك شيئاً مما وجهوها إليه ، فترجع خاسئة تسكب الدمع على ما أصابها من الضعف ، وتهمى العبرات على ما نزل بها من الخيبة والكلال . وأما الثانى (الضرر بالعقول) فإنه يجفف المخ وهو مركز الإدراك ، وإذا زاد به الجفاف ضعفت قوته الداركة ، وتعطلت حركته المعتدلة ، وتقوت قوة الخيال والوهم ، فتغلب الوساوس والهواجس ، وتكثر الخيالات الفاسدة ، وتتزايد الأوهام الباطلة حتى تتمكن من النفس ، وتفنى الإدراكات الصحيحة ، وتظهر الخرافات والهذيانات ، ثم تنتهى هذه الحالة إلى العته والجنون ، ولذلك ترى المعتادين عليه فى غاية الانحطاط من التعقل ، إذا خوطبوا فى شيء من المعقولات شطحوا فى الجواب . وإذا

خاطبوا عاقلاً عدلوا عن الصواب . ومنهم (المدمنون له) من يدور فى الأسواق والأزقة والشوارع مكشوف الرأس ، أو عارى البدن ، يصرح بالسخريات ، ويصيح بالعويل والبكاء ، ويقلد بعض الحيوانات فى الحركات والأصوات ، ثم لا يلبث أن يلقى نفسه فى التهلكة . فإما أن يموت ويدفن فى القبر ، وهو على هذه الحال الشنعاء ، وإما أن يقضى عليه ويوارى فى زوايا البامارستان والعياذ بالله من مثل هذه النكبات . وأما الثالث (وهو الإضرار بالملكات والأخلاق) ، فإنه كما قلنا يضعف قوة الإدراك ، ويزيد فى قوة الوهم والخيال . ومن ذلك ينشأ الخوف والجبن ، فيخاف آكله وشاربه من خياله ، ويتجسم له الصغير كبيراً ، فيجبن عن مقاومة من يريده بسوء ، وإن كان أضعف منه قوة أو أقل عددا . ثم يكبر فيه هذا الداء حتى يخاف من كل شيء ، ويجبن عن مصادمة أى حادث ، ولا يجد من نفسه قوة الدفاع عنها إذا نزل بها أدنى مكروه فيتقاعد عن الداعية إلى النهوض ، خوفاً من ملاقاة ما يكرهه إذا قام ، فيتولد فيه خلق البطالة والكسل وحب الراحة والسلامة ، فلا يسعى على معاشه ولو أجهده الفقر ومضَّه نصب الإحتياج . ولذلك ترى المتعودين عليه يقطعون النهار نوماً والليل جلوساً عن هيئة رديئة ، محاطين بالأقذار والأوساخ ، يسعلون ويعطسون ويهذون ويسخرون ويضحكون ويبكون ، ثم يخيل لهم الوهم أموراً كاذبة ، فيخافون وينكمشون وتبرد أجسامهم فيتجمدون ، ويسكتون ينهشهم ناب الفقر فيتقاعسون ، وتطالبهم العيال بالسعى فيقعدون ، فتضطر أولادهم إلى اقتحام عرصات الأسواق وفسحات البيوت يتكففون السؤال ، وآباؤهم عنهم غافلون . فهذا حال الحشيش وهذه أحوال المعتادين عليه تنتابهم الأمراض فى الأجسام والأبصار ، وتختل منهم المشاعر والمدارك ، وتقوى فيهم قوة الوهم والخيال ، وتتسلط عليهم ملكات الخوف والجبن والبطالة والكسل والخيبة والانحطاط ، وينتهى أمرهم بالجنون وأمر عائلاتهم بالفقر والاحتياج . وقد أثبتت قواعد علم الطب ونطقت التجارب

والمشاهدات ، بأن أمثال هذه العلل والأمراض الجسمانية والعاهات والآفات العقلية والنقائص والمذام الخلقية ، تنتقل من الآباء إلى الأبناء بالتوارث . وعلى هذا فالمستعملون لهذا الجوهر الخبيث (الحشيش) لم يختصوا أنفسهم بالإساءة ، ولكنهم أساؤا إليها ، وإلى ما يتناسل عنهم فى مستقبل الأزمان . ثم إنهم بأخلاقهم وأطوارهم وأفكارهم أعدى لمعاشريهم ، وكل من خالطهم من الجرب ، فكانوا وبالاً عظيماً على بنى النوع الإنسانى ، وأشد عليه ضرراً من الوباء والطاعون ، فإن غاية ما فى الوباء إبادة بعض الأجسام ، وأما هؤلاء فإنهم يبيدون الأجسام ويميتون العقول ويشتتون شمل الآداب . والوباء لا يبقى إلا زمناً قليلاً ، ثم يزول بزوال الأسباب . وهؤلاء لا ينقطع ضررهم بفنائهم ، بل يمتد ويدوم كثيراً من الأجيال . .

ومع كل ذلك ، فإنا نرى أن هذا الجوهر المضر قد انتشر فى البلاد ، وتناقلته أبناؤها من المدن إلى الأرياف وسموا استعماله تمدنا مستحسناً ، وانتقل بالعدوى من المترفين وذوى النعمة إلى المساكين والفقراء ، ولم يقتصر متناولوه على طريقة واحدة فى (تعاطيه) ، بل تفننوا فيه واخترعوا وأوسعوا المجال .

فمنهم من يأكله غير مخلوط بسواه ، ومنهم من يجعله فى أصناف من الحلوى على طرق مختلفة المقادير ، ويطلق على كل صنف منها أسماء لا يشتمل على غيره من الأصناف ، كالمعاجين والمنازيل والبرش والجرواش ، إلى غير ذلك مما لا نقف عليه من الأسماء ، وهؤلاء كثير جداً . ومنهم من يجعله مع (الدخان فى السيكارة) ، وهؤلاء هم الأكثر ما يكونون فى المدن والثغور . وهذه الأقسام كما تختلف فى العلة والكثرة باختلاف المواقع والبلدان ، كذلك يختلف كل واحد منها فى الإكثار منه والإقلال ، ولقد كثر عدد متناوليه فى بلادنا فى هذه الأيام ، حتى راجت بضاعته وربح المتجرون وكثر صانعوه ومحترفوه ، فلم

توجد طائفة من أهل القطر ولا بلد من الأرياف إلا وفيها من أولئك القوم (الحشاشين) عدد ليس بالقليل ، حتى أن الواحد من الفقراء يقدم شراء هذا الجوهر المضر على قوته وقوت عياله ، ومن تلزمه مؤنتهم من الضعفاء ، أو بالأقل يضيق على نفسه ومن معه فى المؤونة والكسوة ، ويوسع على نفسه (فى كيفه) ، فلا يبالى شبع وشبعت عائلته معه ، أو جاع وجاعوا ما دام (مخه عمراناً) . وسيان عنده الغنى والفقر والثروة والاحتياج ، ما دام مراعياً (لمزاجه) . فإنا لله وإنا إليه راجعون . . وكثيراً ما صدرت الأوامر والمنشورات من الحكومة قاضية بمنع زراعة هذا الجوهر الخبيث ، وخطر الإتجار فيه وترتيب الجزاء على المخالفين وتشديد العقاب على متعاطيه ، ولكنا لا نزال نرى بائعيه وآكليه وشاربيه .

وهذه قهاوى المحروسة وسواها من بقية المدن ، يعبق فيها دخانه وتتصاعد منها روائحه ، فتصدع رؤوس المارين . وهذه حوانيت باعة الحلوى ممتلئة بأصنافه ومسمياته . وهذه أكياس كثير من القوم لا تخلو من صنف من أصنافه وهذه آثاره ، وهم الذين يجمعون فى الأسواق ، ويقلقون المارة ويشوشون الأفكار ، ويخلون بالآداب ، وينتهكون حرمة الشريعة المطهرة ، ويفسدون أخلاق العامة ، وهذه أسواق الأرياف لا تخلو من أن يكون فيها علبة عطار أو جراب دخاخنى . بل إن بعض الأسواق على ما رأيناه وسمعناه لا يخلو من وجود طابخه علناً على رؤوس الأشهاد ، بدون مبالاة ولا خوف من وعيد ، وغاية ما نقوله فى هذا الباب أن القوم قد كثروا جداً ، وزادوا عن الحد ، ولم يعتبروا بالجزاء ، ولم يخافوا من الحد ، ولا ترى بهم من مرادع سوى التعنيف الشديد ، لا بالحبس والجلد ، ولكن بتغريم الجزاء من النقد . ومع ذلك فإن مجلس عموم الصحة لابد أن ينظر فى هذا الأمر ، ويتلافى أضراره ، ويتخذ الوسائط الفعالة فى قطع هذا المرض المعدى ، بل الذى هو أشد ضرراً على البلاد والعباد من الوباء والأمراض

المعدية ، فإن من شؤون مجلس الصحة حفظ البلاد من عاديات الأمراض ، ولا يخفى على نباهة رئيسه وحضرات أعضائه ما ينجم فى البلاد من استعمال هذا الجوهر المبيد المضر بالأنفس والأبدان الذى لا يقصر ضرره على آكليه ، بل ينتقل إلى أبنائهم ومخالطيهم وهلم جرا . . وعلى الضبطيات والمديريات أن يساعدوا مجلس عموم الصحة فى قطع دابر هذا الداء الذى ألم بالبلاد . فإن الخطب تفاقم وكاد أن يستعصى هذا الداء على المعالجين ، وغير خفى على أذكياء المأمورين ، سواء كانوا فى المدن أو الأرياف أن مثل هذا الأمر لا ينبغى التقاعد عنه والإهمال فيه ، فإنه إن ترك هؤلاء القوم وشأنهم ، ولم يضيق عليهم توسعوا فى الأمر ، واتسع الخرق على الراقعين . وذلك مما يعود على البلاد بالفقر واختلال الهيئة وفساد النظام ، إذ يصبح الناس ما بين مريض ومتقاعد عن العمل ومفضل للراحة والجوع ومختل الإدراك فاقد الشعور . وكل ذلك وبال يعود على البلاد ، فمن كان فى قلبه مثقال ذرة من محبة الخير والمنفعة وإرادة الوطن ، فليبذل ما فى وسعه لخلاص إخوانه من هذا الداء العضال . وإنا لا نوجه خطاباً ولا نعرض نصيحة معهم فى هذا الشأن تذهب أدراج الرياح ، فضلاً عما يقولون من أن اللائم لهم لم يحمله على اللوم إلا كونه لم يذق لذة الحشيش ومن ذاق عرف ، وإنما نخاطب رجال الصحة وموظفى الضابطة ، حتى لا يخلوا فيما هو من أهم واجباتهم المطلوبة ملم بمقتضى وظائفهم التى يوجب عليهم القانون حفظ واجباتهم ، وإلا عدوا من المهملين .

❊ ❊ ❊

علموا الأمة .. علموا الأمة(*)

سادتـــي

رجعت إلى المعاجم ألتمس منها كلمات تسموا معانيها إلى سماء فضلكم ، أو صيغة حمد تفى بقليل من واجب شكركم ، فما راقنى لفظ ، ولا شاقنى معنى ، ورغبت عن التنقيب والاستفادة إلى الإقرار والشهادة .

أنا عاجز ، نعم أنا عاجز عن إيفائكم حق الثناء لقاء صنيعكم ، لكنى لن أعجز عن الاحتفاظ بعهدكم ، والبقاء على الدوام متأثراً بجميلكم .

شرفتم هذا المكان لتكريم خادم ظننتم به خيراً ، وما خيره إلا منكم وأردتم أن تولوا له فضلاً والفضل أنتم مواليه ، ولا أرى فى اجتماعكم هذا إلا حركة نفيسة من حركات الأمة ، تقطع دور السكون ، وتعين يقظتها وشخوصها نحو الرقى ، بعد أن اختمرت الأفكار وتمكن اليقين بأن لا حياة إلا بالحضارة ولا حضارة إلا بالعلم ، وما أنا إلا ذريعة اتخذتموها للقيام بهذه الحركة المباركة .

هذا مظهر خلق جديد كَمُن حتى اكتمل وسكن حتى نما وتم ، خلق لا تقوم أمة بدونه ، وهو عماد كل رقى وهو محبة الكل خير الكل فى كل فرد من الأفراد ، وظهور هذا الخلق دليل على ما للأمة من الصفات الكريمة الأولية ، ومن الأخلاق الفطرية الاجتماعية ، مما إذا عولج صفا وأعلى مكانتها ، ووصل بها إلى الدرجة التى تستحقها فى هذا الوجود .

(*) وهى الخطبة التى ألقاها فتحى فى حفل تكريمه .

من يخبر حال هذه الأمة ، ويقف على كنه خلقها ، ويعرف جيداً حقيقة خصالها ، ويدرك الصحيح من آمالها ، وينعم النظر فى أعمالها ، يقتنع أن التربة زكية لا يفسد زرعها إلا شيء من البذور الرديئة ، وبأن الخلق كريم يغشاه ستار من عدم العلم التام بالواقع ، وبأن الآمال كبيرة شريفة لكنها مشوبة بشكوك وأوهام تطوح بنا يوماً ذات اليمين ويوماً ذات الشمال ، أما أعمالنا فثمرة هذا وذاك ، نهتاج والسكون واجب ، ونلهو وكل النجح فى العمل ، وما كان شيء من كل هذا يكون لولا خطأ فى تقدير حقيقة حالنا ، وعدم التفات إلى حركة البيئة التى نحن فيها ، ونسيان لشيء كثير من الماضى ، ولهو عن الحاضر ، وعدم اهتمام بما هو آت ، ومحال أن تدوم هذه الحال ، فلابد لنا من إعداد العدة اللازمة لذلك التحول ، وما هى إلا العلم .

العلم هو سلم الأمم إلى حضارتها ، فهو كاشف ظلمات الجهل ، ومسدد الآراء ومنجح كل مجهول ، هو الذى اخترق الأرض فأخرج مكنوناتها ، وحكم فى المادة فاستلب منها كنوزها ، وتسلط على البحار فَسَادَها ، ورمى إلى الجو فحلق فى القبة الزرقاء طالباً للناس علواً وكمالاً ، وقرب الأبعاد فأضاف إلى الوقت أوقاتاً ، وضم إلى حياة الإنسان حياة وحياة ، بهذا أنار البصائر ، وشد العزائم ، وقوى الهمم ، فانهض الأمم وأعلى كلمته التى كان حظها منه وفيراً .

أرجو أن يكون فى مظهركم هذا دليل على أننا قطعنا دور التنافر والتفرق وعرفنا الصواب ، بعد أن حجبته عنا الأوهام زمناً طويلاً ، ودخلنا من باب العمل الصحيح النافع ، واقتنعنا بأن الضعف وما الضعف إلا الجهل يطمس على القلوب ، ويجعل القوم يرون حسناً ما ليس بالحسن ، ويظنون أن التأخر آت من عارض خارجى ، وأنهم إذا قعدوا عن التماس وسائل التقدم فالمقصد يجذبهم إلى الوراء ، لكنهم متى عملوا عرفوا أن العلة ذاتية ، وأن الدواء فى اليد ، وأن

قتل الوقت فى الظنة والاتهام مضيعة لما يفيد ، وداع جديد من دواعى الضعف والتأخر .

أرجو أن يكون فى اجتماعكم هذا دليل على السآمة من هذه الحال ، بل على الفزع من أخطارها الاجتماعية الكبرى ، وعلى أن العلم الذى ينبث فينا أخذ ينقى الضمائر ، ويجمع شمل المتفرقين ، ويطهر السرائر ، ويوحد كلمة المتنافرين ، وينير البصائر ، فيهدينا إلى أن التآزر شرط النجاح ، وأن يد الله مع الجماعة ، وأن التباغض مجلبة الشر ، والتنابذ يمهد سبيل الذل ، وأن فى التضاغن تهلكة للناس .

لعل رجائى محقق بإقبالكم على هذا المكان ، ملتفين حول راية واحدة مع اختلاف العناصر والمعتقدات ، ومنبعثين من روح واحد ألَّف بين قلوبكم جميعاً فتعارفتم وجئتم إخواناً ، فرحين بوجه باسم يحيى موجد هذا الروح وباعث ذاك الشعور – العلم .

سادتـــى

ما خيم الجهل فى أمة إلا أذلَّها ، وما انبلج ضوء العلم بين قوم إلا عزوا ، أيها العلماء ، أيها العظماء ، أيها الشعراء والأدباء ، قادة الأفكار دعاة الأمة ، أربأوا بها فالسبيل واضحة ، علموا الأمة ، علموا الأمة .

تأبينه للمرحوم الشيخ على يوسف

خطبته رحمهُ الله فى حفلة تأبين المرحوم الشيخ على يوسف المندرجة فى المؤيد فى يوم الإثنين ٩ محرم سنة ١٣٣٢/ ٨ ديسمبر سنة ١٩١٣ قال رحمهُ الله رحمة واسعة ،،،

سادتــى

يصعب الكلام على المرء والقلب مثقل بالأحزان ، والنفس مأخذوة بتصاريف الزمان . الأسف على فراق من مات أخذ منا ، والفزع مما يترك الموت من الآثار بيننا ينتابنا .

هل مثل هذا الموقف يترك للإنسان لباً ، أو يستبقى فيه قلباً؟ ألا تعذرونى إذا أعتقل لسانى فأعيانى البيان؟

مات على يوسف . مات الشيخ على يوسف . مات الصحافى على يوسف . مات السيد على يوسف . مات كل أولئك . فأى خسارة خسرنا . وكم فقدنا؟

أجل – بقى لنا أمل . بقى لنا شيء نتعزى به . بقى الرجل . ألا إنما الرجال الأعمال ، ولولا ذلك لذابت نفوس الأمم من خمولها لفقدان مقوماتها ، ولقطع حبل الآمال فى حياة المجتمعات . وإن للرجل الذى نؤبنه اليوم من الأعمال ما يخلد ذكره ويبقى بيننا أثره . وأثر من فنى ذخر من بقى .

ما عرفت الإقدام أنفذ فى قلب الزمان قبل ما عرفته من على يوسف ، ولا أدركت بالحسن إلى أى شأو تبلغ الهمة بصاحبها قبل أن أشهد ذلك فيه : رجل

رمت به الأيام فى معترك الحياة وهو وحيد والجو أقتم ، وظلمات الحوادث تتكاثف على الأمة ، والله يعلم كيف تكشف تلك الغمة . ساورته الشدائد وهو فى مهده ، شب بنفسه واختط فى الحياة طريقه بذاته لا معين له من طارف أو تليد ولا ناصر من أب أو قريب أو نسيب ، ولو أنه كان من أولئك الذين يطويهم الزمان فى ثناياه وتطوح بهم الحياة أنىَّ شاءت لما اجتمعنا اليوم لتأبينه بل لما عرفه الكثير منا ، بل لما عرفه أحد ، لكنه كان رجلاً استعصت نفسه الكبيرة على الزمان فقهرته وكبرت همته على الحوادث فأطاعتها واستقبل الشدائد بعزم وثبات يخدمها فكر صحيح ونظر ثاقب ورأى سديد فصيرها من عوامل مجده وأحالها خادمة لمرامه .

رام الصحافة فكان شيخها ، تطلع إلى مجالس الملوك والأمراء فتربع فيها ، اشتاقت نفسه إلى المعالى فاغترف منها ما اشتهى ، لكنه ما اكتفى وما كان ليكتفى وله تلك النفس التواقة إلى نيل ما لم ينله أحد من قبل : هل سمعتم أن الأحساب عَرَضٌ يكتسب؟ هل علمتم أن الشئون الذاتية مما يطمع فيه أحد؟ ما علمنا ولا سمعنا ، لكنا رأينا قوة الإرادة تعلو على قوة الأحساب ورأينا صدق النية يتخطى الأحساب ، فعلمنا ما كنا نسمعه عن الحكماء من أن النفس أكبر من مرادها على الدوام ومن أن قدرة الإنسان فى الوجود لا حد لها . علمنا هذا وكنت من أول المعجبين به بل من أول المفتخرين به ، لا أقول هذا وأنا هنا أؤبن فقيداً وأتخير ألفاظاً ومعانى لحفلة أقيمت لهذا ، ولكن هذا كان رأيى فى الفقيد من قبل . أسمعوا ما كتبته إليه يوم أن أسندت إليه سيادة السادات وقد نشرت فى مؤيد يوم الأربعاء ٢٤ربيع الأول سنة ١٣٣٠هـ . (١٣) مارس سنة ١٩١٢ .

حضرة السيد الصديق المحترم ،،

يا شيخ . والله إنى أريد أن أهنئك تهنئة دونها كل التهانى ، ليست بمنصبك الجديد ، ولا تأسف الناس على اعتزالك الصحافة بعد أن خدمتها تلك المدة الطويلة ، وبعد أن لاقيت فى سبيلها كل صعب فذللته وسرت فى كل حَزَن فسهلته .

أنا أهنئ فيك همة بنيت لها بعزيمتك الصادقة قصراً تقصر دونه الهمم ، وبجد لم يأته الفتور من بين يديه ولا من خلفه . وبذلك الدرس العالى الذى ألقيت على الأمة بعملك المجيد ونجاحك الباهر وفوزك المبين .

كنت ولا حول لك إلا قوة إرادتك ، ونشأت بين عواصف ليس لها من كاشف إلا ما أودعت من صبر وثبات ومتاعب ، لا عدة لاحتمالها إلا اتخذته من حكمة وأناة .

هكذا غالبت الزمان فغلبته ، وصارعت الدهر فصرعته ، وقلبت أعداء الحوادث خداماً لغايتك السامية حتى استويت مكانك الذى أنت فيه الساعة (سيداً مكرماً مغبوطاً) .

فعل هذا كله مصرى صِميم وشيخ معمم ، إنما هذبته نفسه وقوَّمته حكمته الذاتية وهداه وجدانه النير وساعده العقل الرصين . أى مجد أمام هذا المجد ، فأى حسب أعظم من هذا المصور الشريف الذى ترجع إليه نزعتك وتنتهى فيه رفعتك؟ إن بلداً أنت منها لن تموت ، وقوما تولد بينهم هذه المحامد وتستمد من أصولها تلك القوى والملكات لجدير بهم أن يستقبلوا الزمن بعزم أشد وقلب مطمئن .

هكذا فرحت لسيادتك . ولأجل هذا أهنيك ولك التحية وعليك السلام ،،،

فى ١٠ مارس سنة ١٩١٢

(الإمضاء)

هذا هو الدرس الذى ألقاه علينا المرحوم على يوسف ، درس يجب علينا أن لا ننساه ، بمثله تتغذى الحياة العقلية ، وبإضافته إلى نظرائه تكون للأمة روح تشد أزرها فى الشدائد ، ويوجد لها خلق يهديها فى سبيلها إلى طلب الكمال .

آثار على يوسف لا تحصى ، أكبرها (المؤيد) ، فهو صورة من تلك النفس الكبيرة ، عليكم جميعًا أن تحفظوه ، احفظوه عَلَمًا على تلك الهمة العالية ، احفظوه أثراً جليلاً نافعاً ، احفظوه عدة لقومكم تنتفعون به فى كل حادثة ، عليكم أن تحتفظوا به ، وأن تخلصوا لأمتكم بخدمته ، أو تخدموه بالإخلاص لأمتكم فيه - إذا فعلتم ذلك فقد قمتم بحق صاحبه عليكم ، وقدمتم لأمتكم يداً يحفظها أولادكم وأحفادكم أبد الآبدين .

❊ ❊ ❊

التنافس

ما خلق الله الإنسان إلا ليكمل به عالم الوجود ، الذى لولا إيجاده فيه لكان كلا وجود . وما زاده فى قوة الإدراك وركب فيه الأخلاق والملكات النفسانية ، إلا ليتم ما أراده منه ، وهو انتظام عالم المحسوسات . وما وجه فكرة كل فريق منه لجهة تباين ما توجهت إليه فكرة الآخر ، إلا لتكثر طرق منافعه وتتشعب له سبل الارتفاق . وما غرس خلق التنافس فى أصل فطرته ، إلا لتنمو تلك الطرق النافعة ، وتتقدم هذه السبل الارتفاقية ، فينتج عنهما وصف المدنية والعمران فى أى موقع من القارة يستوطنه هذا الإنسان .

وأنا بأول نظرة نرى أن هذا الخلق (وهو التنافس) قد استوى فيه الجبلى والحضرى ، أو الوحشى والمدنى ، فلا نبصر واحداً من هذين الصنفين إلا وفيه هذا الخلق من أصل الفطرة ، وله فيه آثار ظاهرة تدفعه للأعمال البدنية ، أو الأشغال الفكرية ، التى تظهر نتائجها فى عالم العيان ، فترى كل واحد من هذا النوع الإنسانى يدفعه هذا الخلق إلى إعمال فكرته ، وإجهاد آلاته الحسية ، قصد اللحاق بمن رآه أظهر عملاً من الأعمال عادت عليه منه منفعة جسمية أو عقلية . ثم إذا رأى نفسه قد وصل إلى درجة من كان له عليه السبق تقوى فيه الأمل ، وبالغ فى الجلد والإقبال على العمل ، ليتجاوز هذه النقطة التى وقف فيها سواه ، وهناك يطلب الغاية التى دفعه إليها خلق التنافس الفطرى ، وهى إحراز قصب السبق فى الأعمال . وهكذا حال كل واحد من الناس ينظر إلى أعمال مواطنيه ومعاشريه من أى نوع تكون ، فتتوجه نفسه إلى المشاركة ، ثم لا يرضى إلا بالنهوض للإقبال عليها والمنافسة عليها .

ولا حاجة بنا إلى تفاضل الأعمال التى هى مورد تنافس العمال ، فإنها كثيرة الأصناف متباينة الأنواع على حسب اختلاف الناس فى التقدم والتأخر والتمدن والتبربر والتربية والهمجية والحضارة والجبلية ، فإن لكل صنف من هذه المخلوقات عادات ومألوفات تناقض ما اعتاده الآخرون ، فيذم هذا ما يمتدحه الثانى ، ويغضب ذاك مما يفرح به الآخر ، ويلذ الواحد بما يتألم منه غيره ، والعادة كما قالوا إحدى طبائع الإنسان . وعلى هذا فكما يكون التنافس فى المنافع والخيرات ، يكون كذلك فى الشرور والمضرات ، وكل ميسر لما خلق إليه .

هذا وإنا كما نرى هذا الخلق فى كل واحد من الناس ، كذلك تراه فى كل مملكة أو أمة جاورت سواها من الأمم والممالك ، فكلما تقدمت إحداها إلى عمل من الأعمال التى تظهر نتائجها وتشاهد منافعها ، التفت إليها الأخرى وجارتها فى الوسائل التى أوصلتها إلى خطتها وأكسبتها الفائدة التى حصلت عليها ، فربما أدركتها فى هذا السبيل بمكابدة الأسباب والوسائل التى اتخذتها المتقدمة سُلَّماً ترتقى عليه . وهذا إن كان القابضون على أزمة إدارتها أناس جربوا الأمور ، وعرفوا كيف يكون الوصول إلى ما فيه الخير لبلادهم ، وأحاطوا علماً بطرق المنافع فاجتلبوها ، ولم تخف عليهم مداخل الشرور فاجتنبوها .

وربما رجعت إلى الخلف ووقعت فى حضيض التأخر بالخروج عن الحد والشطط فى القصد والجهل التام بطرق المنافع والمضار ، وهذه إن كان فيها من الجهال الأغبياء من يكون لهم نوع من السلطة ، إما بالصدفة وإما بالتغلب والاعتساف . وقد تكون الأمة فى بعض الأحيان على غير هاتين الحالتين ، أعنى ليست فاقدة للرجال الأمناء الذين يديرونها ، وهم على ما أسلفناه من الأوصاف فى تجربة الأمور ومعرفة الخير من الشر ، وليست خالية من الأوباش الذين يقطعون عليها طرق التقدم التى ينتهجها أولئك الأمناء . وهذه الأمة لابد

أن يعتورها من الحوادث المكدرة لصفو راحتها ما يجبر أهليها على اليقظة من الغفلة ، ويجعلهم يحسون بمصدر الخير والشر ، فلا تلبث أن تعرف للأول بالفضل فتحبه وتواليه ، وتشهد للثانى بالجهل فتمقته وتعاديه ، وهنالك يتسنى لها أن يقيمها رجالها من العثرة ، ويقيلوها مما وقع بها من المصاعب ، ويستأصلوا منها شأفة الفساد ، ثم لا يزالون بها يصلحون ما أفسدته النفوس الظالمة ويجددون المنافع التى طمستها حوادث الجهلة حتى يعيدوها فى نقطتها التى أوصلوها إليها قبل أن تمسها أيدى المفسدين ، ويتمموا لها ما كان فى عزيمتهم من الإصلاح الذى دعاهم إليه منافسة مجاوريهم من الأمم والممالك فى التقدم والعمران .

وإنا لا نذهب فى التمثيل لهذا القسم الثالث من الأمم إلى بعيد ، فإن البلاد المصرية بين أيدينا ، وهى التى تصح موضوعاً لهذا التمثيل ، كانت قبل السنين الماضية (التى غايتها إخماد الفتنة العسكرية) جادة فى طريق التقدم يمهدها أرباب الحل والعقد فيها ، وهم الخبيرون بمنافعها برعاية الخديوى السابق أسباب الوصول إلى الكمال ووسائل الترقى إلى مدارج المدنية ، وينافسون الممالك التى سبقتها فى سبيل الإنسانية ، ويجارونهم فيما وصلوا به من الوسائل والأسباب . وكانت قد ناهزت الوصول إلى ما قصدوه بها من الخير ، فارتفعت قيمتها بين مجاوريها من الأمم ، وعلا شأنها عند الناس ، وحازت وثوق الدول بها بعد أن كانت عندها تعد من البلاد الساقطة عن درجة الوثوق والاعتبار . وكانت إدارتها قد أخذت الموضع الأول من الانتظام ، وأهلوها وصلوا إلى درجة من معرفة الواجبات ، وفرغوا من اشتغال البال بالمظالم ، وتفرغوا إلى إقبال على الأعمال ، آمنين على ما يجتنبوه من ثمرة الأموال ، وتفننوا فى الاكتساب من الوجوه القانونية ، وتوسعوا فى طرقه بحكم خلق التنافس المفطور عليه كل إنسان . وكانت لا يرى فيها أمر يخرج عما حدده القانون العادل ، ولا مأمور يتجاوز حده الذى يناسبه ، إلا أخذته يد العدل والإنصاف ، فارتفع الجو

وأمنت الضعفاء سطوة الأقوياء ، ورجع جد كل واحد وتعبه إلى منفعة نفسه ، لا تتجاوز إلى سواه إلا بالرضاء والقبول ، وبالجملة كانت فى غنية عن تلك الأشهر التى ضربتها فيها أيدى الزمان بما قدر عليها من الحوادث ، فأرجعتها عن وجهة الإصلاح ، وكادت تتقهقر إلى وهدة الانحطاط ، حتى مرت بها وهى تئن ضجراً من انقطاعها عن تلك الوجهة التى اتجهت إليها أفكار رؤساء المصلحين ، ووقوفها فى خطة يمقتها عليه التمدن والعمران .

هذه كان الأحوال البلاد المصرية على الإجمال ، أعنى كان التنافس فيها قاصراً على ما فيه الخير للبلاد ولجميع سكانها ، وعلى ما فيه رفعة شأنهم بين الممالك المجاورة لهم وارتقاؤهم إلى ما يحسبون به من الأمم المتحلية بشعار المدنية والتهذيب ، أما وقد نزلت بها تلك الأشهر المشؤومة التى سقطت من أيام تمدنها ، ومحيت من تاريخ تقدمها ، فقد كان حالها يذيب الأفئدة كمداً ، ويذهب بالنفوس حسرات ، حيث تسلطت فيها الفئة العسكرية الباغية التى خربت سياج العدل ، ومزقت حلل الإنسانية ، وتمسكت بالبغى والعدوان ، فأقبل كل واحد منها ينافس صاحبه فى التخريب والتدمير ، وهدم الأساسات العادلة ، وتجديد شرائع أقاموها على دعائم الأغراض الذاتية ، فأتوا على كل أصل من أصول المدنية ، ولم يبقوا فى البلاد أثراً ظاهراً لتلك الروح التى كان يتنافس فيها الرجال المؤسسون . ولكنا مع ذلك نحمد الله جل شأنه ، حيث لم يطل بالبلاد زمن أولئك الأشرار الذين قصروا تنافسهم على البغى والأضرار ، وأقدر أهل الإصلاح على كبح تلك الشرور ، وسهل لهم طرق العودة إلى تكملة أعمالهم الخيرية التى أسستها أفكارهم السليمة على القواعد الملائمة لمصلحة البلاد وأهاليها .

❊ ❊ ❊

التمـدن والحـريـة

الإنسان محترم فى ذاته من حيث الخلقة والتكوين باعتبار كونه إنساناً ، فإن دعاه باعث الكمال وامتطى ذروة سنام العلوم وتتوج بإكليل المعارف ، زها بمسالبه بدر(*) السعادة فارتقى منار الشرف ، ونادى لسان مجده بوجوب احترام حقوقه وارتفاع شأنه . وإن استمر على الجهل الطبيعي ، ولم يقتف ما يحفظ احترامه الذاتي ويكلأه باجتباء أزهار المحامد واجتناب ما يشوه أعماله ، هوى إلى حضيض الهوان ، والتحق بعالم الوحش المجرد عن التمييز بصلة الأفعال العايد عليه نفعها مال ، لعدم استحصاله على ما يؤهله لقبول ما يناسبه من المعلومات التى بها يصون حقوقه المادية والمعنوية .

وإنى بما وسعه علمى أقول مع كمال الأسف أن البعض من أبناء شعبنا المصرى أصلح الله حالهم قد استعملوا لفظة الحرية فى غير ما وضعت له ،ذلك ولعدم وجود القابلية لفهم المعانى بالنسبة لاستمرارهم على الفطرة الأصلية ، بدون انتقالهم فى درج المعارف ، كما استعملوا لفظة التمدن فى غير ما وضعت له أيضاً فأخطأوا الحقيقة ، وتجاوزوا حدود القوانين الموضوعة على نهج الحرية وتأسيس التمدن ، فتطرق الخلل إلى أعمالهم ، وسبحوا فى بحار المخالفات ، فقطعوا السابلة واستضعف القوى من دونه ، ولم يبالوا بسلب أعراضهم ، ولا بمتابعة أغراضهم مع وجود القوانين الحقة التى ترجع إليها هذه الأمة فى معلوماتها العمومية والخصوصية وهيئاتها النفسانية ، زاعمين أن الحرية تكون

(*)هكذا فى الأصل .

هكذا . ولقد سائنى ما أراه من إفراط البعض فى تعاطى الحشيش والمسكرات ، وارتكاب المنكر ، وترك الفرايض الواجب عليه أداؤها ، زاعماً أن هذا هو التمدن ، إن لم أقل أنهم يأنفون ممن تمشى على سنن الديانة ، باتباع مأموراتها وجوباً وندباً ، وترك منهياتها كذلك . لا وأبيك ما هذا هو الحرية ، ولا هذا هو التمدن ، فإن حكومتنا السنية ثبت الله بالعدل أقدامها ، ونشر فى سماء النصر أعلامها ، لما أطلقت الحرية لشعبها أنبأتهم بأنهم أحرار فى أعمالهم القولية والفعلية بالمطابقة لقوانينها المتبعة ، وأوجبت الجزاء على من يخالفها لما يلزم على ذلك من فساد نطاق الهيئة الاجتماعية ، وعدم احترام تلك الحكومة التى بيدها أزمة الضبط والربط ، مع أنهم لو استقاموا على الطريقة المثلى ، وأدوا فرائض حكومتهم العينية التى افترضتها بوجه القانون الخالى من الإجحاف ورد المظالم لأهليها وحادوا عن تعدى الجدود وأطاعوا ولاة الأمور فيما تجب الطاعة فيه ، كانوا ولا ريب أحرار ، إذ لا حكومة حينئذ تستعبدهم ، ولا حاكم يتسلط عليهم ، فضلاً عما ينتسه ذلك من الحمل على الائتلاف والتعاضد الراغبين فيه لتوفر الثروة وحفظ الشرف المترتب عليه نيل السعادة الأبدية . ولو تضلعوا من جداول حدائق العلوم ، واحتسوا دهان المعارف ، لعلموا أن الشريعة كافلة بتبيان جميع ما فيه الإنسانية ، دنيا وأخرى ، ولو علموا ودخلوا بساتين العلوم ، واقتطفوا من أزهارها ، لرأوا أنه ليس فيما خامر العقل خير أو نوع من التمدن ، ولو كان كذلك لما تسبب عن الإفراط فى الحشيش والخمر مضار كثيرة مشاهدة بالذوق والعيان ، كإعدام الأموال وضعف القوى العقلية وفساد الأعضاء الباطنة ، وإعدام الرجال المترتب عليه ترك البنين والأهلين يتامى وأيامى ، كما شوهد ذلك فى كثير من الوقائع .

وكذا تقرر أنها أم الخبائث على أنه لا يسوغ لذوى العقول الظرفاء ذوى الإنسانية أن يعدوها أساً لتمدنهم ، لما يلزم عليه من انتزاح مادة الثروة والوصول

إلى حالـة لا يـتـمكن معـهـا من الاسـتـعـداد إلى صـالح عـمل يـتـمم به آدابه ، والسبب الوحيد هو عدم التهذيب فى أصل التربية حال الطفولة ، لأن الصغير متى بلغ أشده من غير تهذيب وتأديب صار مطلق العنان فى الجهالة ، مسترسلاً فى البطالة والملاهي ، استناداً على ثروة أبيه أو غنى والديه ، حتى يشب على ما يذهب بتلك الثروة والغنى ، فضلاً عما يؤول إليه من سوء العاقبة ، فلو عوداه من صغره على التهذيب والتأديب بما يناسبه من المعلومات ، من غير تفريط له ، فيما يدعو إليه الهوى والشيطان ، لشب على الاستقامة وترقى سلم المعارف والكمالات ، خصوصاً فى هذا العصر الذى توجهت فيه همم ولى نعمتنا وشمس سعاتنا الخديو الأعظم لإكثار المدارس ومدارسة العلوم العايد على العموم نفعها حالاً ومآلاً .

وعليه فألتمس من بنى الإنسانية فى عموم شعبنا المصرى على تباين مذاهبهم واختلاف مشاربهم ، أن ينشطوا بالإقبال على روض التعليم والتنزه ببهجة المعارف ، مع حث أولادهم على ملازمة المدارس والازدياد من التعليم ، حتى ينتهج الجميع سبل الإرشاد ، ولا يجهلوا معانى التمدن والحرية ، وبهذا يحسن لهم المبدأ والختام .

❊ ❊ ❊

عـادات المـآتـم

قد جاءتنا الشريعة الغراء ببيان ما يجب أن نفعله بالميت من وقت الاحتضار إلى أن يدفن ، فكان من اللازم علينا أن نقف عند الحد الذى رسمته ، فإنه جمع ما يجب مع المتوفي ، وحفظ حقوق الورثة والأقرباء ، فنعما به من حكم عدل أدركت حكمته العقلاء ، واتخذته سنة فى مآتمهم (ولو كانوا غير مهتدين بشرعنا) مع أننا أولى الناس باتباعه لو كنا من الراشدين . ولكن تبعنا فى عادتنا أموراً غير ما شرعت لنا . فمن ذلك : أنه قبل أن تصير حالة المريض خطرة ، أعنى فى حالة كونه قادراً على التكلم والقيام من مضجعه بغير معين وعلى تناول الأغذية ، تحدق به النساء والأطفال والرجال ويخاطبونه بكلمات تدل على اليأس من شفائه ، فيرتجف قلب المريض ، خصوصاً عندما يرى النساء يبكين ويولولن ويعزين والديه فى حياته على مسمع منه ، ولا شك أن ذلك يورث فيه فزعاً شديداً ، وربما يحدث فيه مرضاً يكون السبب فى وفاته ، خصوصاً إذا بلغه أنهم أحضروا له الكفن ، وأداروا الطواحين لتأهيل ما يلزم للمعزين . وقد رأينا أن كثيراً من المرضى يغمى عليه إذ يرى الحاضرين يتكلمون بقرب وفاته ، فيستمر به الإغماء إلى أن يقضى عليه ، وهذه عادة بينة القبح كثيرة المضرات . وقاتل الله الجهل الذى يسوق الإنسان إلى إساءة من هو أحب الناس إليه ، وهو يزعم أنه إنما أتى إحسانا ، وفعل خيراً .

هذا ومن الواجب شرعاً على أهل الميت أن يبادروا بدفنه ، بحيث لا يجوز لهم تأخيره إلى اليوم التالى للوفاة إذا كان ما قبل الغروب يسع ما يلزم له من الغسل والتكفين ، وذلك لئلا تتعفن جثته وتسرى إليها الهوام ، ولكن قضت

علينا العادات السيئة بأن نعد مثل هذا الأمر من الأدنياء المنحطين على درجة المجد ، حتى صرنا نرى أن ميت الأغنياء لا يدفن فى الغالب إلا بعد يومين أو ثلاثة ، وذلك لأن مثل هؤلاء الناس يرسلون إلى جميع أصحابهم وأقاربهم فى المراكز والمديريات المتنوعة ليشهدوا الجنازة ، وفى خلال ذلك يستعدون لما يكون من يحضرون الجنازة من المآكل والمشارب أسبوعاً أو أسبوعين حتى صارت مآتمهم تكلفهم نفقات أضعاف ما ينفق فى الولائم والأفراح . ومن العجب أنهم بعد تكبد هذه المصاريف اصطلحوا أنه ما يجوز للمعزين مهما طال جلوسهم فى محلات المآتم أن يشربوا قهوة أو دخاناً ، ولا يتعاطوا شيئاً من الأطعمة ، ومن يجترئ على ذلك تسلقه الناس بألسنة ، وتعده فرحاً بمصاب المتوفي ، ومحتقراً لأولاده وورثته .

هذا والسُنَّة أن يكفن الميت بقميص من الكتان أو القطن ، ولكن عد ذلك أيضاً عيباً ونقيصة ، بل لابد أن يكون الكفن خزاً أو حريراً ، وليته يكون على قدر الحاجة ، بل يضعون عليه ما يكفى لعشرين أو ثلاثين حياً ، وهذه الأمور وإن كانت من المحرمات لكونها إسرافا قبيحاً ليس فيها شائبة مصلحة يتكبدها الفقير أيضاً ، وكثيراً ما رأينا من الفقراء من يقترض النقود بالفوائد الباهظة لينفقها فى تلك البدع المحرمة .

ولا تسل عما تفعله النساء اللاتى يحضرن من البلاد بدعوة التعزية ، فإنهن يأتين من الأعمال والأقوال ما يشيب الوليد ، وينفطر منه قلب الجلمود ، وذلك أنهن يستأجرن النادبات (هن نساء لا مهنة لهن إلا إثارة الحزن بما يلقينه من تعداد مناقب الميت وتهويل المصاب ، متبعات ذلك بضرب الطبول ، وتحريك الأرجل والرؤوس ، ويأخذن على ذلك أجوراً لا تنقص عن أجرة أشهر مغنية فى الأفراح) . وكلما مررن ببلد وهن متوجهات إلى بلد المتوفى رفعن الأصوات

وقرعن الطبول ، حتى إذا بلغن البلد ضربن الخدود ، وشققن الجيوب ، وزعقت النادبات بطبولها وأصواتها ، وقوبلن بمثل ذلك من داخل البلد . ثم إذا حضرن المآتم وقفن على شكل دائرة ، والنادبات تقف فى وسط الحلقة تنشدن الكلمات المهيجة للحزن المقطعة للكبد ، على طريقة تؤثر فى العقل فساداً ، وفى الصحة أسقاماً ، فإنها تأتى بتلك الجُمل على هيئة إنشاد أدوار الغناء بصوت مرتفع ، وهى مع ذلك تضرب الطبول وتحرك جميع الأعضاء ، فتجيبنها النسوة بضرب الخدود والصدور والوثب والضرب بالأرجل فى الأرض والعنف فى الحركات ، وبترداد تلك الكلمات التى تحرق القلوب ، ولا يقلعن عن ذلك إلا بعد أن تشتعل وجوههن ناراً ، وقلوبهن احتراقا من ألم تلك الضربات وهذه الأصوات . وفى أثناء استراحتهن تدفع كل واحدة من الحاضرات نقوداً (نقوطاً) إلى النادبة لتتشجع فى عملها ، ثم يعدن بعد ذلك إلى تلك الحالة . وهكذا يبقى الأمر إلى نحو أسبوع بعد دفن الميت ، وقد تترك هذه العادة الشنعاء أمراضاً كثيرة لهاته النسوة ، وكثيراً ما أصبن بالصرع والجنون ، وإنها لأشد ضرراً بالنسبة لأهل الميت وأقاربه ، حتى رأينا الكثير منهم تعتريه الأمراض من شدة ما تفعله هذه المبهجات ، فتؤدى به إل الهلاك .

هذا ما يلحق آل الميت من هاته المعزيات ، فضلاً عما يتكبدنه من النفقات فى مآكلهن ومشاربهن ، مع أن سنة التعزية إنما جعلت لكى يتسلى آل الميت بما يسمعونه من المواعظ المفرجة لهم والمخففة لمصابهم ، فإذا بالأمر قد انعكس وصارت المعزيات الآن حقيقات بأن يسمين المفزعات المحزنات .

وقد فاتنا أن نبين أن آل الميت وأقاربه وأصحابه تلتزم نسوتهم بتلويث الوجوه والأيدى بصبغ النيلة وبحلق شعر رؤوسهن ، كأنهن لم يكتفين بتلك الأعمال ، وأما ما يفعلنه خلف الجنائز من الصياح والعويل فهذا شيء يطول

شرحه ، وإنما يلزمنا أن نبين ما يصنع بالميت حين تشييع جنازته من الأعمال الخرافية ، وذلك أن شرذمة من الجهلة تشترك مع حاملى النعش فى الحمل ، فمرة ترفعه عن الأكتاف ، ومرة تخفضه ، ومرة تقف به . وكثيراً ما يكون ذلك إذا مروا على منزل أحد أقارب المتوفى وأصحابه ، فتظن العامة أن التغييرات هذه والوقوف ناشئ عن حركة المتوفى (لا حرج على الجهلة فيما يقولون) وإذ ذاك يتبدل عويل النساء بالزغاريد المتتابعة فرحاً بما أظهره المتوفى من الكرامة (وإن لم يكن من أهلها) ويزيد ذلك منهن عند (لف القسمية) وهى أن يدور النعش مع حامليه من مرتين إلى سبع ، وكذا عندما يقسر الحاملين على التوجه إلى جهة ليست موصلة للمقبرة ، والغالب أن المحرك للنعش على هذه الصفات يكون من ورثة الميت أو المنتمين إليهم ليوهموا الجهلة أنه من ذوى الكرامات ، ثم إذا انتهى هذرهم ووصلوا به إلى القبر فرشوا له فرشاً ثميناً ، ووضعوا معه طعاماً وشراباً ودخاناً (وشبقاً) وهذا هو غاية الجهل ونهاية السفه .

ومن العادات المصطلح عليها أيضاً أن ما تركه الميت من الثياب لا يجوز لبسه لأحد مهما كان ، بل لابد أن تحفظ ملابسه حتى تبيد من نفسها ، وأن أقاربه لا يقربون النساء ولا يحلقون الرؤوس ولا يطهرون الثياب ، إلا بعد مضى ثلاثة أشهر على الأقل من عهد وفاته ، وقبل مضى هذا الوقت لا يجوز لأحد من أهل القرية أن يتظاهر بما هو من علائم السرور ، وأن وقع ذلك أورث عداوة بين البيتين لا يمحى أثرها .

فهذه بعض عادات المآتم ، وأنت تراها أكثر قبحاً مما بيناه فى عوائد الأفراح ، فإن ما يفعل فيها ، وإن كان صادراً عن جهالة ومنبعثاً عن توحش وسوء تربية ، إلا أن الكثير منه لا يخلو من بعض الأغراض ، وإن لم تكن شيئاً بالنسبة لما يترتب عليها من المضرات والخسران . وأما ما يفعل فى المآتم من النفقات الجمة ،

وغير ذلك من العادات التى ذكرناها لك من الحذر على ثياب المتوفى ووضع الأطعمة وغيرها معه فى القبر ، فلم نتبين منها أدنى شبهة تحمل على فعلها فضلاً عما فيها من إتلاف المال وضياع الحقوق .

نعم إن التزام ورثة الميت التباعد عن حلق الشعر ، ونظافة الثياب ، وإتيان النسوة ، أمر معهود فى كثير من الأمم المحاطة بالجهل ، ولكن نهت عنه شريعتنا لما فيه من إظهار الجزع وعدم الرضاء بالقدر ، فإذن لا يصح التخلق به ، بل يلزم التجلد والصبر عند المصيبة ، وذلك خير من الاسترسال مع هواجس النفس الأمارة بالسوء . وهذا الذى بيناه يصنع فى المآتم ، ويكون عند الأغنياء أكثر منه عند الفقراء ، وليس الحامل عليه عند الفئتين سوى أنهم رأوا من قبلهم من الآباء والأجداد محافظاً على هذه العادة ، فهم لذلك يقومون بشعارها ويتنافسون فى إتقانها ، وإن كانوا يحسون بقبحها ، ويتململون من مضراتها .

وأما ما يفعلونه على أنه من القرب ، كبذل الصدقات على المقابر ، والإتيان بالفقهاء لتلاوة القرآن الشريف ، وذكر الله ونظائر هذه الأعمال مما هو من أفعال الخير والإحسان ، فقد أخرجوها عن مواضعها ، وصار الغرض منها الرياء وحب السمعة ، وذلك من غير شك محبط للأعمال . وقد أتينا على ما حضر بحافظتنا من تلك العادات ، واتبعناه ببيان ما فيها من السرف والتبذير ، وفى بعضها من الجهل وسوء التربية ، مع اشتراكها أجمع فى كونها من المحرمات التى يجب شرعاً تجنبها . ولكننا نعلم بأن العدول عنها دفعة واحدة غير ممكن فى زمن قريب لرسوخ قدمها منذ أجيال بين عامة الناس ، وإنما الغرض من هذا البيان استنهاض همم أهل العلم وأذكياء العقول فى المدن والقرى ، إلى حث العامة على تنقيص تلك العادات وتهذيبها شيئاً فشيئا ببيان ما فيها من القبح والمضرات ، وأن يسلكوا فى ذلك طريقة تلائم عقولهم ، بحيث تكون عظتهم

بالأحاديث الشريفة والآثار الصحيحة . وليعلموا أن ذلك من واجباتهم الشرعية ، فإنه من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، خصوصًا مثل هذه المنكرات التى عم انتشارها ، فيلزم التضافر على إزالتها بقدر ما يمكن والمأمول أنهم إذا سلكوا ذلك (ولم يقتصروا على عملهم بما فيها من المضرات تاركين العامة ، وشأنهم كما هو واقع منهم الآن) نرى فى زمن قريب تناقصها خصوصاً ، وأن الكثير من نبهاء بلادنا وعمد الأرياف قد شعروا بقبح هذه العادات ، فأخذوا فى التباعد عنها وإزالتها من عامة بلادهم ، فنقصت فى هذه الأيام . وأملنا فيهم أن يداوموا على هذا العمل الجميل ، حتى تنقطع بالكلية ، فيكون لهم الفضل والثناء ، وإن عامة بلادنا أقرب الناس إلى ترك التقاليد القديمة مهما طال عليها المدى ، فيتوفر على هؤلاء المساكين مبالغ جمة هم فى حاجة شديدة إليها ، ويخرجون من ربقة الإثم ، ويبرأون من علة الخرافات . وفى ذلك ما لا يعد من المنافع والثمرات الدنيوية والأخروية .

❊ ❊ ❊

التمدن والتقدم

طنطن الكثير بذكرهما ، وأرادهما قومنا على ألسنتهم ، فأخذهما الفريق الأعظم بمعنى الإطلاق فى الشهوات والملاذ ، وإتيان القبائح والشرور ، ولهذا نراهم منهمكين فيها غاية الانهماك يمضون جميع أوقاتهم فى السعى إليها ، فنشأ عن ذلك فساد عمومى فى المدن والقرى ، واختلت بانتشار هذين اللفظين على هذه الصورة الأحوال ، وغادر الناس الاجتهاد فى اكتساب النقود ، وأهملوا الجد فى حفظ الموجود ، فخسروا وربح الغير ، وكسدت بضاعتهم ، ونفقت سوق سواهم ، فكان مثل التمدن بالنسبة لهم ولغيرهم كمثل طائر نشر جناحيه شرقاً وغرباً تنشر من أولهما البلايا والمصائب ، ويقطر ثانيهما على من استظل بظله سعادة ونعيماً . وقد استقر الأول عندنا واستمر استيلاؤه فى أفقنا ، فحق للعيون أن تذرف الدموع على هذا المصاب ولألسنة القوم أن تنشد قول إبن أفلح :

فلذا الموقف أعددنا البكا ولذا اليوم دموعى تقتنى

فأى عين تقر بهذه الحال ، وأى ذهن يعد هذا تمدناً وتقدماً ، لعمرى إن العين تبكى عليه دماً والعقل ينكره إنكاراً ، ويحكم أن هذا من أتعس الأحوال ، وإن عدَّهُ الناس جديداً ، وأن أسلافنا خير منا وأحسن سيرة ، وذلك أنهم كانوا ذوى أخلاق فاضلة ومزايا لطيفة وعقائد سليمة وأحوال مستقيمة ، إذا سعوا جدّوا ، وإذا نطقوا صدقوا ، وإذا اعتقدوا اختاروا الحق . وهذه آثارهم تشهد بفضلهم وتنطق بما كانوا عليه ، وأما نحن فخلف أضاعوا فضائل السلف ، واتبعوا الشهوات وعقائد الكثير منا فاسدة ، والعزائم خائرة ، والذمم خربة ، والهمم فاترة ، والقلوب قاسية ، والأقوال كاذبة ، والأخلاق ذميمة . وهذه أعمالنا تشهد

بذلك ، نبذل أموالنا ، ولكن فيما يضرنا أو ما لا فائدة فيه ، وننهر اليتيم وندع المسكين ونوجعهما سباً وشتما إذا سألانا حطاماً ، ونوالى ذوى الفجور ، وأرباب الشرور ، ونواسيهم مالا بغير حساب ولا سؤال . ونجتهد فى تزيين صورنا الظاهرية وتحسينها بأغلى الثياب ، وأرفعها قيمة ونشتريها بالربا الباهظ والفائض الفاضح (يمحق الله الربا) ومن هذا تراكمت الديون حتى أثقلت كواهلنا ، واستغرقت الرهون كثيراً من أملاكنا ، كل هذا ونعد أنفسنا متمدنين ، ونزعم أننا أحسن حالاً من آبائنا الأولين ، فواخجلتاه واَ أسفاه على قلوب عميت عن الرشاد ، وعدلت عن طريق السداد ، وضلت ومالها من هاد ، ومن الغريب أنك إذا نصحت واحداً منهم نفر منك ، واشمأز وعنفك تعنيفاً تكره معه الإخلاص ، وتميل إلى التمويه . بل ويهزأ بك ويسخر منك قائلاً : (خذنى على جناحك وطير) إلى غيرها من ألفاظ الاستخفاف . ولاسيما إن فغرت الأفواه بلفظة حرية ، حيث فهموا أنها عبارة عن أن الإنسان يفعل ما يريد ، وإن خالف الحق والدين . وكان من أقبح الأمور ولم يدروا أن هذه بهيمية لا حرية ، وأن معنى الحرية مجموع الفضائل الخلقية من حكمة وشجاعة وعفة وعدالة ، وإن شئت فقل هى إصدار ما يحسن من الآثار ، وما يجمل من الأعمال ، ولا يكون هذا إلا بأن يتباعد الإنسان عما نهت الشريعة عنه ، ويقوم بأداء ما توجبه عليه من الفروض ، فيعاشر الناس بالمعروف ويسلك بهم سبيل الإخلاص ، ويدع الحسد والكبرياء والعجب والخيلاء والشره والنهامة والتملق والنفاق والشكاسة والغدر والإخلاف ، إلى غير هذه من أمراض القلوب التى أوجبت الشريعة أزالتها ومحوها والتحلى بأضدادها . وإنا والله أحق الناس باعتناق الفضائل وإطراح الرذائل ، وأحوجهم إلى الجد والنشاط فى الأعمال . لاسيما وقد جاد الزمان علينا بمليك جمع بين كمال الأخلاق ورجاحة العقل ، ونشر لواء العدل فى الآفاق ، ومال بجميع قواه إلى إسداء الخيرات وفعل المبرات وإبلاغ

رعاياه إلى أسمى الدرجات . وهذه صفات انطوت عليها ذاته الشريفة ، وفطرته عليها مما أحراه بقول مادحه :

هو فى العدل مفرد ووحيد   وعليه لأجل ذلك يثنى
قمر التم لو تبدى لشمس   لمحا ضوؤها المنير وأثنى
فطن كامل همام نبيه   كل نطق عليه بالخير أثنى

أفلم يأن لنا أن نهتدى بهديه ونتبع طريقته الراشدة ، فننظر من مرآة أفكارنا إلى صور أحوالنا ، فنقوم ما اعتل منها ونحافظ على القويم ، وما نبلغ به إلى المنزلة الرفيعة والدرجات العلى ، ولنا بذلك أمل قوى ورجاء أكيد لما نعلم من أن الناس على دين ملوكهم . فإذا انحرفوا يوماً عن طريقهم ، فلابد أن يسلكوها ويتوجهوا إلى الغاية التى يولون وجوههم ، وقد رأينا من آثار ذلك ما يوجب علينا أن نطلق الألسنة بالثناء على جنابه العالى ، ونشكره على مر الأيام ، ويلزمنا أن نقوم له بحسن الطاعة وتمام الانقياد عملاً بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وأيضاً بحق ما له علينا من الأيادى والإحسان ، هدانا الله إلى انتهاج منهاجه القويم ، ووفقنا إلى شكر هذا الإحسان العميم ، وأدام لنا وجوده ممتعاً بأنجاله الكرام ، مؤيداً برجال دولته الفخام ، ما ضاء الفرقدان ، وسطع القمران .

❊ ❊ ❊

الملاحق

١ . من ملف خدمة أحمد فتحي زغلول .

٢ . مقدمة فتحي لكتاب محمد عمر : حاضر المصريين أو سر تأخرهم .

٣ . مقدمة فتحي لكتاب : الإسلام خواطر وسوانح .

٤ . من مقدمة فتحي لكتاب ادمون ديمولان "سر تقدم الإنكليز . ." .

٥ . أمير الشعراء وفتحي زغلول .

الملحق الأول
وثائق من ملف خدمة أحمد فتحى زغلول
(١)

حقانية وكيلى سعادتلو أفندم حضرتلرى

أحمد أفندى فتحى أحد تلامذة الرسالة المصرية بأوروبا ، قد عاد الآن متحصلا على دبلوم فى علوم الحقوق ، إن هذا الأفندى هو ضمن التلامذة الذين ربتهم الحكومة المصرية على نفقتها ، ومع ما هو متحصل عليه من علوم الحقوق ، تحصل أيضا على اللغتين العربية والفرنساوية .

فنشرف بأن نقدمه لسعادتكم مؤملين توجيه عناية سعادتكم إليه بتوظيفه فى وظيفة لائقة به ، لتنتفع الحكومة بخدماته كما انتفع هو بتربيتها له على نفقتها [١] .

(١) ملف خدمته : ورقة رقم (١٤) .

(٢)

نحن ناظر الحقانية

بناء على الأمر العالى الصادر بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٩٠٧ بتعيين حضرة أحمد فتحى بك رئيس محكمة مصر الأهلية وكيلا لنظارة الحقانية

قررنا ماهو آت :

اعتبار تعيين حضرة البيك المومأ إليه فى وظيفة وكالة نظارة الحقانية من ٢٨ فبراير سنة ١٩٠٧ تاريخ الأمر المشار إليه براتبها ١٢٥ جنيها شهريا .

صدر بسراى الحقانية بمصر ٢٨ فبراير ١٩٠٧

ناظر الحقانية

(ختم) إبراهيم فؤاد[٢]

***

(٢) ملف خدمته : ورقة رقم (١٥) .

(٣)

أحمد فتحى بك زغلول

رئيس محكمة مصر الابتدائية

يملك فى ابيانه مركز فوة مديرية الغربية

٢٠ فدانا بالميراث وبعضه مشترى .

١٠٠ فدان بور بأراضى الصالحية مديرية الشرقية بالقرب من بورسعيد .

حصة فى مبانى وأراضى فضاء بناحية ابيانه المذكورة ، وليس تحت يده سوى ما ذكر ، لا بطريق الملك ، ولا الإستغلال ، ولا الإيجار .

٣٠ نوفمبر ١٨٩٧(٣)

***

(٣) ملف خدمته : ورقة رقم (٦٦) .

(٤)

حقانية ناظرى عطوفتلو أفندم حضرتلرى

أتشرف بإحاطة علم النظارة أننى اشتريت مائة وثلاثة وتسعين فدانا وكسور بناحية محلة أبو على التابعة لمركز دسوق بمديرية الغربية ، وهى مرهونة للبنك العقارى المصري .

٢ مارس سنة ١٩٠٢

رئيس محكمة مصر

أحمد فتحي(٤)

(٤) ملف خدمته : ورقة رقم (٦٧) .

(٥)

أحمد فتحى زغلول باشا :

- توفى فى ٢٧ مارس ١٩١٤ .
- تاريخ الميلاد ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٣ .
- إبيانه مركز بلاد الأرز غربا بمديرية الغربية .
- بعد أن أتم دراسة الحقوق بأوروبا تعين بوظيفة مساعد مندوب بلجنة قضايا الحكومة من ١٢ سبتمبر ١٨٨٧ .
- فى ٢٧ يونيو سنة ١٨٨٩ تعين رئيس نيابة .
- فى ١٤ إبريل سنة ١٨٩٣ جعل مرتبه ٤٠ جنيها .
- فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٣ تعين رئيس محكمة المنصورة الأهلية .
- فى ٢٦ فبراير سنة ١٨٩٦ نقل لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية رئيسا .
- اعتبارا من ١ يناير ١٩٠٢ جعل راتب حضرته ٦٦٦ جنيها و٦٦ مليما .
- عين وكيلا لنظارة الحقانية فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٠٧ .
- زيد راتبه ١٠ جنيها و ٤٦٦ مليما من أول يناير ١٩١١ .
- زيد راتبه ١٢٥ جنيها سنويا من أول يناير ١٩١٤[٥] .

(٥) ملف خدمته : ورقة رقم (٧٢) .

الملحق الثاني
مقدمة فتحى لكتاب محمد عمر : حاضر المصريين أو سر تأخرهم

الحمد لله والصلاة على رسوله

وبعد ، فإن أنفع العلوم علم يهدى الباحث فيه إلى حال أمته ، الذى هو فرد منها من صعود وانحطاط ورشد وغواية وتفرق وائتلاف وخلل ونظام ، فإذا رآها فى مصاف ذوى الصفات الصالحات جد معها فى شوطها ، وافتخر بأنه كان واحدا من تلك الأمة الراقية والقوم الصالحين . واذا رآها فى الدرك الأسفل من سوء الأعمال ، وقلة المال ، وتخاذل الرجال ، أهرع إلى الاصلاح يلتمسه لها من بابه ، واجتهد فى تبين النافع من الضار ، ضاربا الأمثال بأحوال مجاوريها من الأمم ، وما كانوا فيه وأسبابه ، وما صاروا إليه وأبوابه ، مفصلا علل التأخر ، موضحا وسائل التقدم ، مشجعا على الانتقال من حال إلى حال ، معيرا بالبقاء على ما ظهر ضرره ، مشخصا للداء ، معينا للدواء ، مذكرا بالآباء الأولين والأجداد السالفين . فما هو إلا أن يجتمع إليه كثير يعملون بفكرته ويقومون بنصرته ، فلا يلبثون حتى يعم هذا الفكر الصالح وينتشر النور ، وهذا هو الاجتماع والعمران .

ولقد مضت السنون الطوال ، وتتابعت القرون والأجيال ، والناس عندنا لاهون مجدون فى الخبال عن هذا العلم النافع غافلون ، وبغيره مما لايفيد فائدة مشتغلون ، وبقى ذلك كذلك إلى أن ظهر تحت سماء مصر كتاب الأستاذ الكبير العالم الاجتماعى الشهير ديمولان ، الذى أبان فيه كل أحوال الفرنسيس فى هيئاتهم الاجتماعية كلها ، وبيَّن ما فى كل واحدة منها من النقص ، وقابل ما

عندهم بما عند جارتهم الأمة الإنكليزية من كمال تلك الهيئات ومتانة أصولها ، وسمه باسم (سر تقدم الإنكليز السكسونيين) .

ولما اعثرتنى الصدفة بهذا الكتاب ترجمته إلى اللغة العربية ليعم النفع ، فإنه إن بقى على أعجميته كان بالنسبة إلى بلادنا كأنه لم يكن .

ما وجد هذا الكتاب مترجما فى أيدى الناس ، وقرأه العامة والخاصة منهم ، حتى ترتبت عليه الفائدة التى قصدتها ، والتفت حضرة الفاضل محمد أفندى عمر إلى ما عليه أمتنا المصرية من التأخر والانحطاط ، فقام ينظر فى الأسباب ، وطرق لذلك جميع الأبواب ، حتى استجمع كثيرا من أحوال الأغنياء والمتوسطين والفقراء وجمع الجميع فى كتاب سماه (حاضر المصريين أو سر تأخرهم) .

تصفحت هذا المؤلف الجديد ، فإذا هو قد ألم بالمطلوب ووفى بالبحث حقه ، فتكلم عن أخلاق الطبقات الثلاث التى تتألف منها أمتنا المصرية ، وعن عاداتها وحالها فى كل مجتمعاتها ، بما أبان العلة وشخص الداء ، وأرجع جميع الأدواء إلى أصول الأخلاق ، وبرهن على أن العمل إنما هو الموصل إلى السعادة .

الحق أحق بالاتباع والضرر إنما هو فى تمويه الحقيقة بما يسمونه تسترا ، والنصح إن كان مرا ربما حلت عاقبته وحمدت غايته ، على أنه إن كانت الصيحة بالتى هى أحسن فلا يضيع فيها الصدق بالأخبار عن الواقعيات . وقد يكون الواقع أشد ما يكون سماعه على النفوس ، فلابد إذن من أن يتحرى الناصح الحق ويبين العيب ويدعو الى التنصل والتنحى عنه ، ولابد من أن البذرة تنبت متى وضعت فى أرض صالحة لتلقى النصيحة ، ولا ينقصها إلا أن يكون زارعها مستجمعا لشروط القبول ، ومتى صلحت النية فكل عمل صدر عن صاحبها فهو وإن كان صعبا يكون مقبولا .

كان يسرنى كثيرا أن أنتقد على هذا الكتاب فى موضوعه فأقول أن هذا العيب الذى ذكره مؤلفه فى الصنف الفلانى غير موجود ، ونسبته إليه غير صحيحة . غير أنى آسف أسفاً شديداً لما رأيته من أن صاحب الكتاب لم يذكر عيبا فى طبقة ، ولم يندد بعادة ، ولم يعير بخصلة ، ولم يتعرض إلى خلة إلا وجدته بعد التدقيق مصيبا فيما قال ، صادقا فيما نسب . بل رأيته مستعملا الرقة فى البيان والتلطف فى المقال .

الحقيقة التى لا ريبة فيها أن مجموع الأغنياء منا منصرفون عن هذا العالم بأسره ، غير عالمين بأنهم فى هذه الدنيا ، فما عليهم منها إذا عمرت أو عمها الخراب ، ولذلك نرى كل واحد منهم وحده يهيم فى لذاته ، غير مبال بضياع المال الذى جاءه عفوا بطريق الصدفة ، لأنه ابن فلان وارتفعت فيما بينهم صفات التعارف ، وضاعت من أيديهم ثقة كل واحد بأخيه ، فكانوا بذلك هملا تضيع ثروتهم ، ولا يعلمون ويؤخذون على غرة ، وهم أولى بأن لا يعدون من الأمة فضلا عن أنهم هم العالون .

سرت هذه الحال من الأغنياء إلى المتوسطين ، لأنهم أقرب إليهم ، وربما خالطوهم أو سمعوا من أخبارهم والوهم قتال ، وتشبهوا بهم على غير روية ، وقلدوهم بحكم تسلط طبع القوى على الضعيف ، فمالوا ميلهم وطبعت نفوسهم على محبة ظهور الباطل ، وتنافسوا فى الشهوات ، وتفانوا فى اللذائذ ، وقالوا أنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ، ولم يقولوا فأضلونا السبيل ، فكانوا بذلك خاسرين ضائعين .

الفقراء وهم السواد الأعظم مسيرون لا مخيرون ، وليس فى أيديهم ما يصرفونه هباء فى لذة ، ورأس مالهم الذى هو قوتهم وعافيتهم وصبرهم على تحمل المشاق مدخر عندهم فى خزانة الكسل ، وليس لهذا مفتاح إلا نصح

الناصح مسموع الكلمة ، وهو لا يكون إلا من طبقة أعلى بحكم العادة القديمة ، وهذا كما تقدم لا يهمه صلاح ، ولا يعنيه فلاح فى نفسه ، فما الظن به فى غيره إن نام الفقراء وضاعت رءوس أموالهم التى اكتسبوها بالطبيعة ، وكانت تنفعهم كثيرا أو صرفوهم فى تحصيل الرزق الواسع وما هم بفاعلين .

لو التفت الأغنياء والمتوسطون إلى أن ذنب أولئك الضعفاء الفقراء فى رقابهم ، وأقبلوا على العمل النافع لانتقل أولئك المستضعفون من حالهم إلى ما هو خير منها ، ولعاشوا فى نوع من السعة والنعيم ، أذكر أن بعض الأغنياء وغيرهم من كبار المتوسطين أقلعوا من زمان غير بعيد عن استمرار ليالى المآتم إلى الأربعين ، كما كان الحال من قبل ، فلم يعمل بالأمر الجديد سوى اثنين أو ثلاثة حتى علق به أصاغر المتوسطين ، وأخذه قاعدة جديدة عميمة ، وسمعنا فى كثير من الأندية والمحافل شديد التنديد بالعادة القديمة والتنويه بالجديدة ، وانتقل الناس بعد ذلك من تقصير ليالى المآتم الى سير سرير الجنازة ، وأخذت العادة الشنعاء تتلطف ، ولا شك أنه إذا بقى الكبراء على ذلك تبعهم الفقراء ، وحل الجديد النافع محل القديم المضر فى هذا الأمر ، وإن كان ليس بالعظيم .

واذكر كذلك أن بعض الأمراء أقبل اليوم على تحسين حالة الزراعة ، فالتفت الأصاغر من مجاوريه إلى مذهبه ، ولا أرتاب فى أن الحالة المعاشية يمكن أن تصير إلى حسن ثم إلى أحسن إن لم يصرف أولئك الأصاغر ما يحصلونه فيما لا قبل لهم به تقليدا للأمراء . وكذلك لا أرتاب فى أنه لو كَثُر أمثال أولئك الأمراء لانتشر عملهم الصالح بين تلك الطبقات ، فإننى لا أرى هذا الإقبال من الضعفاء إلا فى المجاورين لقرى أولئك الأمراء ، ولا أشك فى أنهم لو صلح حال جميعهم فى صرف ما يشتغلونه لصلح حال مجاوريهم ،

كذلك فى هذا الباب وبذلك يتبين صدق ما قلناه من أن علة خسارة الضعفاء هم أكابر الأغنياء والمتوسطين . وكذلك هم سبب التقدم والنجاح .

وبما تقدم كله يستبين أننى حكمت فى أمر هذا الكتاب بأنه كتاب نافع فيما ألف فيه ، وأنه قد استوفى كل ما يقال فلم يبق إلا أن أحث الناس على الانتفاع به ، وأن أعلمهم بأن ما فيه هو فينا ، وأننا يجب علينا أن نسارع إلى الخروج عما وصمنا به بحق ، وأن مؤلفه لا يبتغى منا سوى الصلاح ، وكنا أحق بأن نطلبه لأنفسنا ، ولو بدون منبه فمن نبهنا إليه فقد وجب علينا له الامتنان .

***

الملحق الثالث
مقدمه فتحى لكتاب الإسلام خواطر وسوانح

بسم لله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول لله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أما بعد ، فإنى عثرت على كتاب فرنساوى ألفه حضرة الكونت هنرى دى كاسترى فى الدين الإسلامى سنة ١٨٩٦ ميلادية ، ولما فرغت من قراءته وجدتنى منساقاً إلى ترجمته ، فلم يدركنى ملل ولا نَصَب ، حتى أتيت على آخر الكتاب ، وعدت فراجعت الترجمة فإذا هى تكاد أن تكون حرفا بحرف على الناطقين بالعربية ، فاعترضنى بعض الأصدقاء بعد أن أريته شذرات من الترجمة ، وكان من رأيه عدم النشر بالطبع ، واحتج بأن الكتاب وإن كان غاية فى التدقيق قاصدا نهاية التحقيق ، غير أنه اضطر إلى ذكر ما كان يعتقده أو يتوهمه مسيحيو العصور الخالية فى الدين الإسلامى من الشناعات والسباب ، وذِكْر مثل هذه الأشياء وإن كان على سبيل الرد عليه ، ربما اشمأزت له النفوس ، ووقع من المطلعين عليه موقع الاعتراض وعدم القبول ، فهو لا يروق من هذه الجهة جماعة المسلمين . وإننى لم يكن ليخطر ببالى مثل هذا الخاطر ، ولم يَدُر فى خلدى أن يعترض واحد على ذكر هذه الأشياء فى الكتاب ، وهى لم تذكر من المؤلف ، وهو مسيحى ، على أنها حقائق ، بل أوردها على أنها أوهام عَلِقَت بأذهان المسيحيين من تلك الأعصر ، وترتب عليها ارتسام المسلمين فى مخيلاتهم بالصور الشنعاء . وأراد المؤلف محو هاته الصور من مخيلات الأجيال

الحاضرة ، فبرهن وأقنع واستدل بالحجة القاطعة على أن تلك موهومات لا نصيب لها من الحقيقة ، وذكر أسباب إيجادها فى النفوس ورغب إلى قومه أن يستبدلوا تلك الصورة المشوهة بصورة الإسلام الحقيقى ، وما يدعو إليه من خير وإصلاح ، فلذلك لم أُعوّل على رأى ذلك الصديق فى التأخر عن الطبع ، إلا أنه أوجب عندى استشارة غيرى وغيره ، فرأيت أمام الصديق المعارض أصدقاء موافقين ، وغيرهم مستحسنين ، وغيرهم آمرين . وبالطبع غلب رأى الأكثرين رأى الواحد خصوصا وأنه لم يستند إلا على شيء قال ربما يحصل ، ونحن نقول ربما لا يحصل ، وإن حصل فهو من عدد قليل ، وأنه لو لم يذكر المؤلف ما ذكره من تلك الموهومات ، ونبَّه على فساده ، وبرهن على خلافه ، لبقى مركوزا فى أذهان قومه ، وبقينا ونبينا عندهم على ما توهمه السابقون منهم . أما وقد فعل فلا شبهة فى أنه خدم ما استطاع ، ووجب علينا شكره ما استطعنا ، ومن تمام شكره إعلام قومنا بكتابه ، ولكنا لم نرد أن نأخذه بدون إذنه ، واستمحناه الإذن ، فتفضل بالإجابة ، وكان له بذلك كمال الشكر والامتنان .

على أن إمكان اشمئزاز البعض مما جاء فى هذا الكتاب من الأقوال التى أوردها المؤلف ، ودل على خطئها بالبرهان ، لا يقابل الفائدة التى نراها من نشره ، والذى يقصد الفائدة ويتحرى مآخذها لا ينبغى له أن يلتفت إلى ما عساه يكون من نفور بعض القراء ، فإنهم لو أنصفوا لما نفروا .

هذا وإن قومى لعلى علم تام من أن مقصد مثلى حسن ، وغرضى إنما هو التنبيه على أنه قد وُجِدَ من غيرنا من قام للدفاع عنا بذكر الحقائق وسرد الوقائع التاريخية الصادقة ، فسفَّه رأى قومه فينا ، وأبان لهم وجهى الخطأ والصواب . ومن الواجب علينا أن نعرف ما قيل عنا ، وما دفع به الدافعون ، وليتهم كانوا منا . وأن نتعرف صاحبى الرأيين ، فنعرف المخطئ ولا ندع له بابا آخر للطعن

علينا ، ونعرف لذى الصنيعة صنعة الجميل ، فنزيده اعتقادا باستحقاقنا لما صنع ، وفينا كتاب الله أعظم مرشد لهذا السبيل ، فقد حكى بعض المذاهب بنصها وفصها ، ورد عليها بغاية الإيضاح والتبيين ، وعندنا كُتب سادتنا الأولين فى علوم الأصول والكلام ، وكلها تحكى المذاهب الباطلة مفصَّلة وترد عليها . ومن علمائنا السابقين ومن يوجب حكاية المذهب الفاسد ليتمكن المطلع من الرد عليه بالدليل ، فإذا كان هذا هو الحال فى المذاهب التى قررها أصحابها ، ويخشى حقيقة من انتشارها لأنها مبرهنة بنوع من البرهان ، وإن كان فاسد المقدمات ، فما الظن بما حكاه الغير عنا على غير وجهه إما غلطاً أو قصداً لغرض مخصوص .

أظن أنه لا يختلف اثنان فى أنه من ألزم الواجبات حكاية ما حكوه وإشهار ما قالوه وإذا كان الغرض فى القسم الأول هو الرد عليه ، فليكن الغرض من هذا القسم معرفة ما رمينا به ، وهذا بلا ريب ينتج الرسوخ فى العقيدة عندنا ، وينتج أيضًا اقتناع الواهمين بضد ما اتهموه ، وهذه النتيجة تقصد لكبار العقلاء ويحبها أفاضل العلماء .

وفوق هذا فإنا ذكرنا ما قالوا قدحا علينا ، أو طعنا فى ديننا ، أو صاحبه عليه الصلاة والسلام ، نرجع إلى أنفسنا ونبحث عما إذا كان لأقوالهم من أعمالنا منتزع ، أم لا ، فإن كان لهم منها منتزع علمنا ، كما هو الصواب ، أنه ليس من أصل الدين ، فلا نلبث أن نتباعد عنه ونرجع لأصل الدين القويم ، ولا نحيد عن العمل به فى أى حال من الأحوال ، وإن لم يكن لهم من أعمالنا منتزع أدركنا أن لهم غرضا مخصوصًا ، وعملنا على ما يزيل هذا الوهم من أنفسهم أو يدفع بهم إلى تغيير غرضهم فينا ، وهم لا شك مجتنبوه ، إذا رأوا منا ذلك النهج المعتدل ، والسير على الصراط المستقيم ، فإن مقاومة الوهم بمثله لا تفيد .

ثم إنه لا يُنكر أن فى همتنا قصورا عن البحث فيما يعتقده الناس فينا ، فإذا قيَّض الله لنا من بحث ورد الشبه عنا ، فما أجدرنا بقبول عمله وإظهار الرضا به ، وما أولانا بنشر تحقيقاته بيننا حتى تعم فائدتها جميعنا . وربما جرَّنا هذا إلى الاشتغال بأنفسنا ، فإن ما حك جسمك مثل ظفرك ، ولا أحسن من أن يتولى الإنسان مصالحه بيده مع حفظه حق مرشديه وعدم إنكار صنيعهم الجميل .

ولقد رأيت للمؤلف من التثبت فى النقل والاعتدال فى الحكم ، واستعمال الذوق فى الرد ، وإعمال العقل فى النقد وطريقه ، والاستشهاد بالوقائع التاريخية ما فاق به سواه من مؤلفى زمانه ، فبان لى أن غرضه الحقيقة أيا كانت ولا أؤاخذه فى بعض مواضع كتابه مما لم يطابق نقله الأحكام الشرعية ، إذ ربما اعتمد فيه على قول بعض النَّقلة ، وربما كان نقله صحيحا على بعض المذاهب التى لم أقف أنا عليها . ولذا لم ألاحظ عليه فى الهامش ملاحظات مستقلة ، وفضلا عن هذا فإننى رأيت أن تكون الترجمة نقلاً للأصل برّمته ، ليعلم ماذا أقصد ، وماذا كتب . ويكفينا منه أنه طالب للحق وإن جاء فى بعض آرائه ما عساه يحمل على الخطأ ، مثل الذى له فى التأويل والحكاية عن أخلاق رسول لله صلى الله عليه وسلم وأعماله واعتقاداته . على أنه لا يفوت قراء الترجمة أن الكتاب كتب لينشر بين قوم المؤلف ، وكان لابد من ملاحظة أفكار المكتوب إليهم وأحوالهم . وربما اضطر فى ذلك إلى إبراز بعض الحقائق الثابتة عنده فى صورة الاحتمال والإمكان ، كما يشير إليه كتابه إليَّ إيذانا بنشر ترجمته . كذلك لم أشأ أن أكون معه من المجادلين ، لئلا تضيع الحقيقة ، أو ينجرَّ الأمرُ إلى الإنكار على صاحب مقصد حميد .

هذا وإنى تارك هنا ما نحن عليه من وقوف حركة النظم ، ومن تعطيل قوة البحث فى العلوم ، ومن ترك ما دعينا للعمل به من قواعد الدين ، ومن الابتداع

فيه ، وعدم العمل بزواجره ، واجتناب نواهيه من إغفال ما حثنا عليه من العلوم النافعة والتربية الناجعة ، فإن ذلك وإن كان له مساس بما نحن بصدده إلا أنه يقتضى الشرح الطويل ، مما لا يحتمله هذا المقام . ولكنا نقول قولة مجملة بأن الإسلام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ولا يرضى منا بالغفلة عن المنافع أو المصالح ، ويطالبنا بدفع المفسدة ، ويحثنا على مكارم الأخلاق ، ويبين لنا أن كل بدعة ضلالة ، وأن كل ضلالة فى النار ، وأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وأن العلم يطلب ولو فى الصين ، وأن لا شيء من العلم بضارٍ ولا شيء من الجهل بمفيد ، وأن من أحدث فى الدين ما ليس منه فهو رد عليه ، هذه تعاليم الإسلام ، إلا أن الأعصر الحاضرة قد خرجت بالدين إلى ما ليس منه ، فعطلت شعائره الحقيقية ، ودخلت فيه البدع ، وتغلبت المعتقدات الفاسدة على القواعد الصحيحة ، وتمسك الناس بالبدع وتركوا الفرض والواجبات ، وكاد القرآن يتلى مع الآلات المطربة ، والصلاة تؤدى فى الحانات ، واندثر العلم ، وانحلت العزائم ، وقعدنا عن تحصيل القليل من ضرورياتنا ، وتأخرت التربية ، ففسدت الأخلاق ، وتناكرت النفوس ، فاختلفت المساعى ، وتعاكست المقاصد ، فتفرقت المنافع ، وانحل عقد نظام المسلمين ، فأصبحوا شتاتا يمقتهم الناس ويرمونهم بالانحطاط ويعيرونهم بما تنزه عنه شرعهم ، ولكنهم ألفوه وبالغوا فى التمسك به ، حتى تبدلت الأحوال وصار كما قال صاحب المنار " الجبر توحيداً ، وإنكار الأسباب إيماناً ، وترك الأعمال المفيدة توكلاً ، ومعرفة الحقائق كُفرًا وإلحاداً ، واذا المخالف فى المذهب دينا والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحا ، واختبال العقل وسفاهة الرأى ولاية وعرفانا ، والذلة والمهانة تواضعا ، والخضوع للذل والاستبسال للضيم رضا وتسليماً ، والتقليد الأعمى لكل متقدم علمًا واتقانًا " .

نعم كان هذا كله وأكثر منها مما نمسك القلم عنه ، وإنما سُقْنا ما ذكرنا معذرة لمن يفهم من الأجانب أن سوء حالنا آت من جهة ديننا ، وأن رضوخنا للجهالة إحدى دعائمه . كما يتبين من عرض أفكارهم فى هذا الكتاب والدين براء منه ، وكيف نطلب منه حُسْن الاعتقاد فى الإسلام ، وهم يرون المسلمين يأتون من الأعمال ما لا ينطبق على عقل ، وما لم يقل به شرع ، اللهم إذا كان كما فهموه منا ، إنهم فى الحقيقة معذورون إذا نسبوا أعمالنا هذه إلى الدين ، فإنهم لا يفرقون بين ما هو منه ، وما هو بعيد عنه ، وليس لهم إلا أن يعتقدوا بأن عملنا مأمور به لا منهى عنه .

إلى هنا نمسك القلم ، ونترك القول للمؤلف سائلين القارئ أن يستصحب معه فى قراءة هذه الترجمة ما قدمناه من الملاحظات وبالله الاستعانة وعليه الاتكال فى صلاح الأعمال .

***

الملحق الرابع
من مقدمة فتحى زغلول لكتاب ادمون ديمولان
"سر تقدم الإنكليز السكسونيين"(*)

هذا هو الكتاب الذى نهدى اليوم ترجمته إلى الناطقين بالضاد[١] عمومًا ، وإلى المصريين خصوصا لمطابقة الوقائع التى دونت فيه عن الأمة الفرنساوية لما هو حاصل فى بلادنا ، ولاتفاق البلدين فى كثير من العادات والأخلاق والأفكار ، التى عنى[٢] المؤلف ببيان جهات النقص فيها ، اللهم إلا أن الصغيرة لديهم كبيرة لدينا والاستثناء فيهم قاعدة عمومية عندنا .

ووجه الشبه هذا هو الذى اخترناه سببا فى طلب الإذن من المؤلف ، وإليك نص ما بعثنا إليه بعد الديباجة :

" لما قرأت كتابكم النفيس "سر تقدم الإنكليز السكسونيين" أثَّر عندى بما رأيته من الشبه الكلى بين أمتى وأمتكم ، فأخلاقنا أخلاقكم وعاداتنا عاداتكم والفرق بيننا وبينكم أن العيوب عندنا كبيرة جدا ، ولا شك فى أنه سيكون لكتابكم هذا من التأثير ما يرجع بالفائدة على الأمة الفرنساوية ، لذلك رأيت أن نقله إلى اللغة العربية يفيد أهل بلادى ، فهل[٣] تسمحون لى بترجمته " .

وقد تفضل حضرته فأجابنى على طلبى فى ٤ يوليو ١٨٩٨ بما يأتى :

"أخذت خطابكم بعد عودتى من غيبة قصيرة ، وقد سررت جدا من حسن ظنكم بكتابى ، وفى اعتقادى أن بلدكم يستفيد من تلك الأفكار مثل بلدى ، فأنا أصرح لكم ، بكمال الارتياح أن تترجموه إلى اللغة العربية" .

ويحتاج سر تقدم الإنكليز السكسونيين فى مطالعته إلى دقة نظر وروية ، حتى لا يفوت الغرض المقصود لنا من ترجمته ، وهو تنبيه الفكر إلى أسباب ما نحن فيه من التأخر والانحطاط .

ومن المقرر أن ميلنا إلى مطالعة المؤلفات التى من هذا القبيل ضعيف ، حتى فى هذه الأيام ، وأن المشتغلين بنشرها أشقى العاملين ، فإن الواحد منهم قد ينتهب أوقات العمل فيها من سويعات نومه ولحظات راحته ، ويتحمل من المتاعب ما لا يقدر قيمته ، ثم لا يتعيض عن تعبه بلذة أن الناس يقرأون ما أهدى إليهم ، فيرتاح لكونه كان لقومه من النافعين .

لكن الذى لا يأخذ الأمور بظواهرها ، بل يطلب الحقيقة أنَّى وجدت ، يعلم أن انزواء رغبة الناس عن مطالعة المؤلفات المفيدة ومللهم من العلم بما يجرى فى الوجود من تقدم الأمم بترقى المعارف واتساع نطاق التربية والتعليم ، لم يكن ناشئا عن بغضهم للعلم أو نفورهم من القائمين بنشره ، وإنما هو مسبب عن طول زمن الترك الناشئ عن الضعف العام الذى ألم بروح الشرقى منذ أجيال طويلة ، حتى أمات ملكة حب الاستطلاع ، وجعل النظر فى أحوال الأمة خصوصا ، وأحوال الأمم عموما ، مقصورا على ما يحس إحساسا ماديا ، فلا يتحرك الفكر إلا من جانب الشعور الجسمانى ، على أن تحركه إنما يكون لمجرد التوجع والتحسر ، أو لمجرد الابتهاج والفرح الوقتى ، ثم لا يلبث أن يرجع إلى السُبات(٤) العميق فيذهل عن أمته وعن نفسه ، ويصبح كما أمسى ، بل أقل عزما وأكثر هما .

ذلك ما أصاب الأمم الشرقية ، واستحكم فى عقولنا حتى عم الفتور ، وصار كأنه حالة فطرية ، فحسبناه خلقا من أخلاقنا ، وعددنا من يخرج عن حالتنا هذه مبعتدا عن المنهج القويم ومارقا(٥) عن تقاليد الأمة وعاداتها ، ومهيناً لها فيما

ترى التمسك به من موجبات كمالها ، خصوصا إذا جاء بما يكشف القناع[٦] عن المصائب المتولدة من ذلك القول ، ويبين وجه الضرر فيما نحن فيه من الإنزواء ، وندد بما اعتقد – كما هو الصحيح – أنه أصل الشقاء ، ومجلبة العناء من أخلاق تخالف الغرض من الحياة ، وطباع تبعد بأصحابها عن محجة[٧] النجاة ، ومعتقدات يقوم فيها الوهم والخيال مقام حقيقة الحال ، تلك عادة المرء إن كلت همته ووهن عن القيام بما وجب ، كان أقرب إلى الغضب دفعا لأثر يؤلمه ، وانتقاما من نصوح يدب على موضع الألم ، فتتأثر النفس مع فقد القدرة على نفى أسباب التاثر ، ويصير المخاطب كمن شُدَّ وثاقه[٨] ، وانهالت عليه السياط[٩] . فلا هو قادر على تحمل آلامها ، ولا هو يجد من وثاقه فكاكا ، فيكتفى بالصياح والإكثار من النواح ، وتمتلئ نفسه بالحقد على ذلك المسيء إليه فى نظره ، فيبيت نفورا منه لا يسمع له قولا ولا يعى عنه فعلا .

هذا هو السبب فى الإقبال على مطالعة القصص والخرافات ، والتهافت[١٠] على اقتناء التافه[١١] من المؤلفات ، والتسابق إلى حفظ كتب المجون[١٢] والروايات ، والنفور من القول الجد ، وهجر النافع ، وإغفال المفيد ، وفيه تعليل واضح لكثرة انتشار كتب المجون والهذيان[١٣] ، وقلة كتب العلوم الصحيحة ، فإن الأولى لا تطلب شيئا من همة القراء ، ولا تشغل محلا من مدركاتهم[١٤] ، ولا يتكلفون أكثر من النظر إلى الأحرف ليحصلوا[١٥] منها صورة فى الذهن تضحكهم ، ويدركوا الواقعة تعجبهم ، ثم ينقضى الوقت بسلام وغطاء الإدراك الحقيقى مقفل عليه ، ولأن الثانية تقتضى إمعان النظر[١٦] ، وتستوقف الفكر وتنساب فى النفس ، فتحدث فيها من التأثير ما يهيج خاطر المطالع ويدعوه إلى العمل ، أو ينبهه إلى الواجب عليه ، فإن كان من أهل الهمم الساقطة ? وهو الغالب – وجدته يشعر بثقل الواجب المطلوب منه ، ومتى أحس من نفسه العجز عن القيام به أسرع إلى طرح الكتاب ، واشتغل عن العمل بالتعنيف

والعتاب ، وربما أوقد النار وأحرق الكتاب كما فعل بعضهم العام الماضى بترجمة كتاب الإسلام ، ظنا بأن إحراقه ينجيه من وصمة[١٧] الخمول الذى انغمس فيه .

تلك حال تسوء عقباها ، وتدعو إلى أسوأ منها ، وقد أحدثت عندنا من انحلال الأخلاق وتمزق الروابط ما ظهرت نتائجه فى جميع مشاعر الأمة وتقاليدها .

هذه المجتمعات أصبحت معدومة فى منازلنا حتى بين أهل الحرفة الواحدة ، بل صار هؤلاء أشد الناس نفورا بعضهم من بعض ، فجهل كل واحد سبيل أخيه ، وغابت عنه بذلك منفعته ومنفعة مواطنيه ، وضعفنا بتفرقنا ، وسهل على المزاحم أن يفوز بيننا فوزا مبينا ، نعم يوجد عندنا مجتمعات كثيرة فى هذه الأيام ، ولكنها حول الكؤوس والأكواب[١٨] أو فى ميادين الملاهى والألعاب .

وتلك الجرائد على كثرتها وانتشارها لا يقرأ منها فى كل يوم إلا سافر فلان وعاد فلان ، ونشكر فلانا ونحذر فلانا ، وهذا وكله راجع إلى ذلك الحال[١٩] الذى استولى على الأمة ، فجعلها لا تقبل إلا ما يوافق الكسل ، ويلائم عدمِ الحركة فى كل شيء ، أما ما كان فى تلك الجرائد مما يرشد إلى فضيلة أو ينبه إلى رذيلة أو يوضح حقيقة ، فحظها حظ كتب الجد من جعلها خلف الظهر ، والاستعاضة عنها بما لا يفيد .

لكن على قدر فقدان الشعور العام فى الأمة يجب العمل على تنبيهه ، وبمقدار إعراضها عن لا نافع ينبغى السعى فى حملها على الرغبة فيه .

ومن الحقائق أن الأمة لا تنهض من رقدتها ، ولا تهب من سباتها ، إلا إذا خلصت من قيودها وفارقتها الأمراض التى تنهك[٢٠] قواها ، وتحط من عزيمتها .

ولا يتيسر للأمة أن تتخلص من آلامها ، وتبرأ من أمراضها ، إلا إذا عرفت أسبابها ، وأحاطت بوجبات الضعف فيها .

فأول واجب على من يطلب مصلحة أمته أن يبين لها مواضع الضعف الملم بها[٢١] ، حتى إذا تم تشخيص الداء سَهُلت معرفة الدواء .

وليس من ينكر أننا متأخرون عن أمم الغرب ، وأننا أمامها ضعاف لا نستطيع مغالبتها ، ولا يسعنا أن نفوز ببغيتنا مادمنا ودامت على هذا الحال :

نحن ضعاف فى كل شيء تقوم به حياة الأمم ، متأخرون فى كل شيء عليه مدار السعادة ، ضعاف فى الزراعة وهى الأساس[٢٢] المتين الذى تقوم به حياة الأمم والشعب ، فلا مطمع لرجل لا يحصل عيش يومه ، ولا حول لأمة لا تجد ما تقتات منه ، وبالزراعة تأمن الأمة غائلة الشقاء[٢٣] المادى ، فتتمكن من النهوض إلى الحياة الأدبية وطلب الكمال ، ونحن لا نعرف حتى اليوم من أصولها غير شق الأرض بقطعة من حديد مركبة فى كتلة من الخشب يجرها ثوران ، ورمى البذور كما كان يرميها آباؤنا ثم انتظار الريح بعد ذلك من وراء الكسل والانكماش[٢٤] . وأهل الغرب يستحدثون لإصلاح الأراضى كل يوم جديدا ، ويخترعون من الآلات ما تتضاعف به الهمم ، وتشتد به الأيدى ، ويؤلفون الشركات للقيام بما يعجز عنه الأفراد ، من جلب المياه وتصريفها وجمع الحاصلات وبيعها ، وغير ذلك . مما جعلهم يستغلون[٢٥] الصخر ويستنبتون الجبال ، والزراعة عندنا حليفة[٢٦] الانحطاط ، فالفلاح هو ذلك المسكين الذى اقتفى أثر أبيه القديم فى عمله ، ولم يجدد بعد طريقة ولا صنفا ، فاكتسى أردأ الملابس ، وتغذى بأخس المأكولات ، وقضى حياته فى أدنى المساكن ، وهو أبو الجهالة المحقر المرذول ، فلا نزال نقول عن أنفسنا إذا أردنا أن نبالغ فى ذم أحدنا بالجهل أنه فلاح .

ضعاف فى الصناعة لأننا أهملناها وجهلنا طرائقها ، فأصبحنا وليس منها إلا الفعلة والحمالون ومنفذو إرادة الأجنبى ، نشقى ليسعد ، ونموت ليحيى ، هذه المعامل الفسيحة والمصانع العظيمة التى أقيمت فى بيوتنا كلها للأجنبى ، وإذا زرتها وجدتها تنقسم إلى أقسام مختلفة بحسب طبيعة العمل المطلوب ، وفى كل قسم رئيس من الإفرنج ، والكل بعد ذلك مصريون ، هذه المبانى الشاهقة ، والقصور الشامخة ، شيدت كلها بيد المصريين ، لكنهم كانوا فى تشييدها من الأجراء ، يعملون بمشيئة الأجنبى ولفائدته .

أدخل بيت عظيم من عظمائنا ، أو بيت شيخ من علمائنا ، أو بيت راهب من رهبائنا ، أو بيت حقير من أجرائنا ، ثم اعدد ما فيه من أنواع الأثاث والأمتعة ، وانظر إلى بنائه وما يتركب منه ، ووزع كل شيء على صانعه ، وابحث عن يد المصرى فيه ، لا تجدها إلا فى قطع الأحجار ورصها ، وما بقى كله من آنية طعام وموائد وأخشاب وأطالس(٢٧) وحرائر وبُسط وحديد ومقاعد ومصابيح وأكواب ومفاتيح وألوان وملابس ومطابخ ، وكل شيء صنع الأجنبى(٢٨) .

ضعاف فى التجارة ، فلا نعرف عنها غير أن الرجل منها يشترى الصفقة(٢٩) من المخزن الكبير ، ويجلس بها فى حانوته الصغير ، حيث يفتحه متأخرا ، ويقفله قبل المساء ، ويتحادث مع جاره طول النهار . وإذا جاءه طالب أجلسه مكانه ، وبالغ فى مؤانسته وإكرامه بما ينقضى به الوقت ، والرجل ما اشترى والتاجر ما استفاد ، وهو يُحسب من التجار(٣٠) ذوى المكانة والاعتبار(٣١) ، مع أنه لا يعرف أين تصنع بضاعته ، ولا من الذى جلبها إليه ، ولا ثمن مادتها الأولى ، ولله الآخرة والأولى . لذلك ضرب الأجنبى على أبواب التجارة ، وأحيطت بسور من علمه وهمته ، فاستأثر بصادراتها ، واختص

بوارداتها ، وأنشأ الشركات توسعا فيها ، واستخدم الوطنيين سماسرة لا يكسبون من كدهم إلا اليسير .

ضعاف فى العلم ، اللهم إلا فى علم مداره جهل حقائق الأشياء فى الوجود ، أما المفيد منه فقد اقتصرنا فيه على ما يختص بعلاقة الإنسان مع ربه ، والباقى منه أخرجناه عن معناه الصحيح ، وحكمنا عليه بالإعدام ، وشهرنا(٣٢) المشتغلين به ، حتى أمتنا روح التقدم وأطفأنا مصابيح العرفان فى الأذهان ، أين منا المؤرخ والنباتى والطبيب والكيميائى والمهندس والطبيعى والأديب والمنطقى واللغوى وعالم الأخلاق والحكيم والفلكى وعالم الزراعة ، وغير هؤلاء؟؟ نعم نحن لا نعدم نفرا منهم ولكنهم قليلون ، بدليل أنه لو كان عندنا منهم عددا يكفينا لما وجد الأجانب بيننا على هذه الكثرة التى نشاهدها ، لأنه ما كان يجد عندنا ذلك المرتزق الفسيح .

ضعاف فى العزيمة ، فلا يبدأ الواحد منا بعمل إلا وقد أدركه الملل وأحاط به الفشل ، فترك عمله وتقهقر فرحا بسلامته ، وإذا قام أحد منا بمشروع يقتضى المعونة لبيت دعوته من كل مكان ، حتى إذا آن أوان الشروع فى العمل هرب كل واحد من ناحية ، وأصبح صاحبه يندب الوقت الذى قد أضاعه فيه ، بل ربما وجد فى نفسه ارتياحا أيضا ، لأنه كان قد عرَّضها لأمر يجرُّ إليه ضرا ، بل إن تلبية النداء أصبحت معدومة لكثرة ما كان من الفشل والخذلان ، فماتت بذلك روح الطلب ، واستولى الخمول على كل الطبقات ، وانفرد أولو العزيمة بمثل هذه المشروعات .

ضعاف فى الأُلفة والمودة ، فكل يوم ترى الأحباب أعداء ، والأصدقاء متنافرين ، وأهل العلم متباغضين متحاسدين .

ضعاف فى النخوة[٣٣] ، والشعور الملى ، والجامعة القومية ، فالعظيم منها يهان ، والكبير ينتابه الزمان[٣٤] ، وأمثاله ينظرون إليه فرحين بمصيبته ، مستبشرين بنكبته ، أو آسفين من بعيد ، بحيث لا يسمع لهم صوت لمعونته ، والأصاغر يشمتون جهلا أو انتقاماً .

وما ترى العظماء إن ذل الواحد منهم ذل لهم أجمعين ، ولا حسبت الطبقات النازلة أن زوال الطبقات العالية من الأمة بمثابة[٣٥] زوال الروح من الجسم لأنها سياج[٣٦] الأخلاق ، ومرجع صيانة العادات ، ومشخص الأمة فى حياتها وشعورها ، ولا حياة لقوم لا يشعرون .

ضعاف فى الخيرات ، فما أثقل طلب الإحسان على أغنيائنا والموسرين .

ضعاف فى طلب حقوقنا ، فالرجل منا يسلب حقه ويهان ملكه ، وهو يقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ضعاف فى أداء الواجب علينا ، فكل منا أقام فى عمل يهرب منه ، إن كان رئيسا استعمل الرياسة فى البطالة[٣٧] واتخذها شمارا[٣٨] بعدم العمل ورمى أحماله على مرؤوسيه ، وإن كان مرؤوسا طفق يندد بالرئيس ، ويقول كان يجب عليه أن يعمل كذا وكذا ، ولقد أخطأ فى كذا وكذا ، وعاقبونى لأنى قمت بالواجب ، ولأنهم قوم لا يعقلون .

ضعاف فى الاعتبار[٣٩] بالحوادث ، فنحن ننسى كل شيء ، وقد يكون النسيان حاصلا فى زمن التذكير ، لذلك نقع فى الخطأ بعينه كل يوم .

ضعاف فى حفظ ما ترك الآباء ، فكل يوم تشرق الشمس[٤٠] على بيوت دمرت ، وأملاك تفر من أيدى وارثيها ، فتتلقفها أيد[٤١] عرفت مكان الضغف منا ، وتنبأت بزوال النعمة عنا ، فتربصت بنا ريب الزمان[٤٢] .

ضعاف فى التحصيل ، فالرجل يولد ويتربى[٤٣] ويهْرم ويموت ، وقلما تراه قد حافظ على ما كان فى يده ، والنادر هو الذى يزيد عليه شيئا يسيرا .

ضعفنا حتى أصبحنا نرجو كل شيء من الحكومة ، فهى التى نطالبها بحفظ حياتنا وخصوبة أرضنا وترويج تجارتنا وتحسين صناعتنا ، هى التى نطلب منها أن تربى الأبناء وتطعم الفقراء وترزق العجزة[٤٤] ، وتنفى أسباب البطالة ، وتحفظ الأخلاق وتلم شعث[٤٥] العائلات وتجمع أشتات القلوب ، هى التى نطالبها بتعويض ما نقص من إرادتنا وتقويم ما اعوجَّ من سيرنا ومسيرتنا وراء هجمات المزاحمين عنا والسهر على مصالح كل واحد منا ، فإذا تأخرت فى عمل من تلك الأعمال بإهمالنا رميناها بسوء الإدارة واتهمناها بحب الأثرة[٤٦] ، وألقينا عليها تبعة خمولنا كلها .

لاريب أننا بهذا الزعم قد ضللنا السبيل ، فإنما الحكومة وازع[٤٧] ، ولا يكلف إلا ما اقتضته طبيعته ، وشأن الحكومات فى الأمم تأييد النظام ، وحفظ الأمن ، وإقامة العدل ، وتسهيل سبل الزراعة ، ومعاهدة بعضهم بعضا على ما يضمن حرية التجارة ، ويشجع أهل الصنائع والحرف ، كما تقتضيه المصالح المشتركة ، وعلى قدر ما تسمح به الممكنات ، وبالجملة فالحكومة وزاع عام لا واجب عليه إلا الأمن العام ، مما يدخل تحته جميع الناس ، ولا ينفرد بالاستفادة منه واحد بخصوصه .

على الأمة بعد ذلك أن تستفيد من هذا النظام ، وتنتهز فرصة الأمن والطمأنينة لتسعى وراء منافعها ، وتطلب الكمال فى زراعتها وصناعتها وتجارتها ، وفى نشر المعارف وإحياء العلوم ، وفى أداء الواجب والمحافظة على الحقوق ، وهذا هو الذى أهملناه حتى أضعناه .

تركنا الزراعة فى انحطاطها ، والصناعة فى تأخرها ، والتجارة فى كسادها . وصار كل الذى نطلبه من التعليم لأبنائها وظيفة فى الحكومة يعيشون فيها عيشة الانكماش[٤٨] جريا على سنة الآباء ، وما درينا أن الزمان يتقلب وأحوال المعيشة تتبدل ، وأن وظائف الحكومة أصبحت آخر الحرف كسبا ، وأشدها تقييدا لحرية العمل ، وأقلها مشجعا على الهمة والإقدام ، لانحصار مزاياها فى ذلك الراتب الزهيد الذى لا يفى فى الحقيقة بجميع حاجات الإنسان فى حياته ، بعد أن كانت مصدر الثروة ، وموضع الراحة والأمل ، ومظهر الأبهة والفخر ، وعنوان الشرف والاعتبار[٤٩] .

ولما أقفل باب التوظف خصوصا فى وجه العطلة[٥٠] ، الذين أضاعوا وقتهم فى اللهو واللعب ، ظن الناس كلهم أن أبواب الرزق كلها أقفلت فى وجههم ، وظهرت فى الوجود نشأة جديدة[٥١] تراها فى الغدو والرواح مجتمعة فى القهاوى[٥٢] ومنتشرة فى الطرقات ، وهى أعلم الناس بطرق التخريب وأسرعه إلى الانصباب على تمزيق ثروتهم وتبديد ما جمع الآباء ، وأصبحت الشبيبة[٥٣] أقل استعدادا إلى العمل الذى يعود على الأمة بالخير ، وينهض بها إلى التقدم والترقى .

هكذا انصرفنا عن مصالحنا ، وأضعنا الوقت فيما لا يفيد ، حتى أحدقت[٥٤] بنا المصائب ، وضاقت علينا أرضنا .

مصائبنا جهل بما احتجنا إليه ، وإهمال لما يعول فى حياة الأمم عليه ، وتمسك بأهداب[٥٥] أحلام قد أشرقت عليها شمس الحقيقة فبددت غياهبها[٥٦] ، إلا من عقولنا ، وبرهنت على بطلانها إلا فى خيالنا ، فكان من وراء إصرارنا على التعلق بهذا الخيال أن تربع الأجنبى بين ربوعنا ، وانفرد بمصالح دارنا ، وصرنا نتردد لنخدمه وهو يتردد فى قبولنا لكثرة ما أهملنا أنفسها ، وقلة ما اهتممنا بمصالحنا وطول غيبة الصواب عنا .

بذلك ازددنا ضعفا على ضعف ، فأصبحت شئوننا فى أيد غير أيدينا ، وذهبت أموالنا إلى غير أهلينا ، ممن لا يشفق علينا ولا لوم عليه ، لأنه استفادها بجده من خمولنا ، واكتسبها بكده مما أضعنا .

واستخدمنا فى منافعه جزاء ما أهملنا منافعنا ، ولأنه رجل تلقفته العلوم وهذبته التربية الصحيحة ، فأنمت فيه الإدراك ، واستنارت بصيرته ، وقويت إرادته واشتدت عزيمته ، وعلم أن الحياة لا تقوم إلا بالمثابرة(٥٧) على العمل ، وعلى السعى المستمر فى طلب الكمال ، ومن سنن الله فى خلقه أن يسود العلم على الجهل ، وأن تعلو القوة على الضعف ، وأن يبدد النور الظلمات ، وعلم ذلك الرجل نور انبعثت أشعته وراء عزيمته تضىء جوانب الجهل ، فمالت من الغرب إلى الشرق ، وانكشف الستار عن رجلين أحدهما عالم مقدام ، ومدرك همام ، عزيز الجانب بهمته ، رفيع الشأن بفطنته ، والثانى جاهل قد استولى الجبن عليه ، فاستكان لحكم الزمان ، وأنَّ تحت أثقال الخمول(٥٨) .

هذا هو الداء الذى نتألم منه ، وتلك هى الأعراض التى تنهك(٥٩) جسم أمتنا ، وبديهى أن معرفة الداء صارت سهلة على القراء .

دواؤنا التربية وسلامتنا فى نشر المعارف والعلوم ، فعنينا بها بما بقى فينا من شعور وما ترك لنا من الاختيار فى العمل قبل أن يتم الانحلال ، ويتعذر علينا القيام . نعم ، لا أنكر أن النداء بوجوب التربية والتعليم يشعر بأن المنادى بعيد عنهما ، ومثل هذا النداء لا يروق الذين تمكنت من قلوبهم الأثرة وحب الذات ، وصار أحب الناس إليهم من يهش لهم ويبش فى وجوههم ، وإن كان أقلهم رحمة بهم وحنانا عليهم - وكلنا ذلك الرجل - لكن الذى يسعى وراء الحقيقة ويطلب النفع لقومه مضطر إلى التخفيف من تلك العزة الباطلة ، والإقلاع عن حب ذاته ، وعدم الإسراع إلى النفور من النداء حتى يتبين صوابه من خطئه ، ويميز ضاره من نافعه .

وحب الأثرة هذا هو الذى جعل كتاب حضرة صديقى الفاضل قاسم بك أمين (تحرير المرأة) الذى نشره فى الشهر الماضى لا يروق فى عين بعض القراء ، لأنه يدعوهم إلى ترك عادة تأصلت فى النفوس ، وعُدَّت من الاعتقادات ، ونسبت غلطا إلى الشريعة السمحاء ، وليست منها فى شيء من الأشياء ، مع أن المؤلف جمع فى كتابه من شوارد الأفكار ورفيع الأقوال ما يعجب به كل محب لخير الأمة طالب لنفعها ، ولكنه برهن على أن علة تأخرنا سوء حال النساء وعدم تربيتهن وتعدى الرجال على حقوقهن ، فكان ذلك النفور من كتابه لمجيئه على ما يخالف ما ألفته النفوس وارتاحت إليه .

ولعل " سر تقدم الإنكليز السكسونيين " لا يسلم من مثل هذا الانتقاد ، ولكن إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى .

غرضى من ترجمة هذا الكتاب تنبيه الأفكار إلى حالتنا التى نحن فيها ، ومقارنتها[٦٠] بحالة الأمة الفرنساوية ، لنوقن بعد علمنا بما هى عليه من التقدم والعمران ، وبما بلغته من الدرجات الرفيعة فى العلم والحضارة[٦١] والعرفان أنها احتاجت ، وهى على تلك الأحوال ، إلى إصلاح شئونها لتضارع غيرها من الأمم ، فنحن أحوج منها إلى التعليم ، وأشد افتقارا إلى التربية ، وأعوز الناس إلى الاشتغال بما ينفعنا فى هذه الحياة ، كما أنى أقصد لفت الأذهان إلى أن الزمان يمر بالأقوال ، والأمة لا تحيا إلا بصالح الأعمال ، وأننا أولى الأمم بالجد فى تحصيل سعادتنا ، فبقدر التأخر ينبغى شد العزائم وتقوية الهمم ، وإدامة السهر فى العمل حتى نفوز بحظنا من هذه الدنيا .

كذلك أريد أن تميل الأفكار إلى إطالة النظر فى أحوال الأمة الإنكليزية التى تحتل البلاد ، وإلى أن عمال الاحتلال هم قوم من ذلك الجنس الذى أُلِّف هذا الكتاب ، لبيان السر فى تقدمه وسيادته فى الوجود ، وهم ماداموا فى بلادنا

يجب علينا أن نقارن بين أحوالهم وأحوالنا ، وعاداتهم وعاداتنا ، ومعارفهم ومعارفنا ، وهمتهم وهمتنا ، وحركتهم وحركتنا ، واقتدارهم واقتدارنا ، وكفايتهم وكفايتنا ، وحولهم وحولنا[٦٢] ، وثروتهم وثروتنا . يجب علينا أن نقارن بين هذا كله وبين ذلك كله ، لأننا مضطرون إلى معاشرتهم ومعاملتهم والاحتكاك معهم فى جميع أمورنا ، حتى إذا صح نظرنا وعرفنا الأمر على حقيقته ، وتشبعت نفوسنا بما هو واقع ، لا بما نتخيله من غير تبصر وروية ، اهتدينا إلى واجبنا القومى ، وعلمنا إن كان مجرد القول يجدينا نفعا ، وهل الأجدر بنا دون الاسترسال مع الأمانى التى لا مرجع لها من عملنا وكدنا ، أو إطالة التفكير فى الحوادث التى تجرى علينا لنميز الصالح لنا من الضار بنا ، ولنقصد باب النجاة فندخل منه ، ولا نبتغى عنه من ذلك الخيال بديلا .

غرضى من ترجمة هذا الكتاب أن يكون مرآة يرى القراء فيه أمتين عظيمتين ، ودولتين تتنازعان اقتسام الوجود قد سبقت إحداهما الأخرى ، فلما رأت هذه تأخرها جعلت تفكر فى أسباب تلك الأفضلية ، وقام العقلاء فيها وأرباب الأقلام يخبرونها بأسباب ضعفها ، ويرشدونها إلى سبل الإصلاح . فلم تنفر من هذا النداء بل أجابت الدعوة شاكرة مرشديها ، وثارت مذعورة(٦٣) فى طلب الكمال والتشبه بجارتها ، وأخلق بنا أن نتعظ بأعظم منا ، ونتمثل بمن بيننا وبينه فى العلم والتهذيب والقوة والسلطان والهمة والإقدام ما بين الأرض والسماء ، ثم نأسف على زمن قضيناه فى التمنى ، وننفض غبار الوهم ، ونلتمس إصلاح شئوننا بأنفسنا ، ولا نحجم عن سلوك طريق الكد والعمل ، فهو الذى فيه الحياة ودونه الموت الصحيح .

غرضى من ترجمة هذا الكتاب لقومى هو غرض المؤلف من نشره على قومه ، لذلك يجمل بى أن أستعير فى البيان عبارته حيث يقول :

"ان الحياة ليست لعبا ولهوا ، وإنما هى مغالبة دائمة للمتاعب ، والمتاعب لا تحصى والمتاعب متجددة فى كل آن ، ولن تنالوا النصر فى هذا الجهاد إلا إذا جعلتم كل اعتمادكم على أنفسكم ، لا على غيركم . إذ كل ما يمكن أهليكم وأصدقائكم ومحبيكم وجيرانكم وحكومتكم أن يساعدوكم به أقل فى الحقيقة بكثير مما يمكنكم أن تساعدوا به أنفسكم بأنفسكم ، إذا عولتم عليها ولم ترجعوا فى أموركم إلا إليها" . هذا غاية الحكمة ، ومنتهى الرأى الصواب ، فاتبعوه إن كنتم للسعادة طالبين .

وانما رجل الدنيا وواحدها   من لا يعوِّل فى الدنيا على رجل

مصر فى أول صفر ١٣١٧هـ / ١٠ يونيو ١٨٩٩

أحمد فتحى زغلول

هوامش الملحق الرابع

(*) تقع المقدمة فى ٤٧ صفحة ، وقد اكتفينا بالجزء الذى يقع بين صفحتى ٢٧-٤٧ نظرا لأهميته المباشرة لموضوع الكتاب ، وقد ضبط الكتاب وشكَّله وشرح بعض عباراته الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي .

(١) الذين لغتهم اللغة العربية .

(٢) عنى بكذا مبنى للمجهول : أى اهتم به .

(٣) الأصح فهل دون الهمزة التى هى استفهام آخر .

(٤) السبات : النوم وأصله الراحة ، ومنه سمى يوم السبت .

(٥) من مرق السهم من الرمية خرج من الجانب الآخر ، ومنه يقال مرق فلان من الدين .

(٦) استعارة من قناع المرأة ما تقنع به وجهها .

(٧) المحجة : جادة الطريق .

(٨) الوثاق بفتح الواو وكسرها : القيد والحبل ونحوهما .

(٩) جمع سوط الذى يضرب به .

(١٠) من قولهم تهافت الفراش فى النار إذا تطاير لايها .

(١١) التافه الحقير الخسيس من كل شيء .

(١٢) أصل المجون أن لا يبالى الإنسان ما صنع ، والمراد كتب الهزل .

(١٣) يريد الهزل الذبيه بالهذيان .

(١٤) أى الحاسة التى تدرك الأشياء ، ومعلوم أن أول مراتب وصول ألم إلى النفس هو الشعور ، ثم الإدراك ، ثم الحفظ ، إلى آخر ما هو مبسوط فى كتب الفلسفة .

(١٥) يقال حصل الشيء تحصيلا .

(١٦) الأفصح العام .

(١٧) الوصة العيب والعار .

(١٨) جمع كوب : الكوز الذى لا عروة له .

(١٩) الحال يذكر ويؤنث فيقال حال حسن وحال حسنة ، وقد يؤنث بالهاء فيقال حالة .

(٢٠) من نهكته الحمى هزلته .

(٢١) ألم بها : نزل بها .

(٢٢) الأس والأساس : أصل البناء .

(٢٣) الغائلة : الفساد والشر والهلاك .

(٢٤) المراد بالانكماش ها هنا النقيض من انكماش الضرع وهو تقلصه .
(٢٥) أى يجعلون الصخر يأتى بالغلة .
(٢٦) ملازمته .
(٢٧) جمع أطلس : ثوب من حرير منسوج .
(٢٨) صنع الأجنبى خبر قوله ما بقى .
(٢٩) أصل الصفقة ضرب اليد على اليد فى البيع ، علامة وجوب البيع .
(٣٠) التجار بكسر التاء وتخفيف الجيم وبضم التاء والتشديد .
(٣١) يريد الاحترام ، والاعتبار بهذا المعنى غير صحيح .
(٣٢) يريد شتمنا عليهم وجعلناهم شهرة .
(٣٣) أصل النخوة العظمة ، والمراد الشهامة والمروءة .
(٣٤) يريد يصيبه الزمان بنوبة .
(٣٥) يريد بمنزلة .
(٣٦) أصل السياج الحائط ، وما أحيط به على شيء .
(٣٧) هى الرياسة والرئاسة ، أما البطالة بفتح الباء ، فمصدر بطل الأجر يبطل بطالة أى بطل .
(٣٨) الشمار فى الأصل ما يلى الجسد من الثياب ، أى ألصق البطالة بنفسه كالتصاق الثياب بالجسد .
(٣٩) الاتعاظ .
(٤٠) شرقت الشمس طلعت ، وأشرقت أصبحت .
(٤١) تلقف الشيء : تناوله بسرعة .
(٤٢) ريب الزمان : حوادثه .
(٤٣) تقول ربيته فتربى ، أى نشأته فنشأ .
(٤٤) جمع عاجز .
(٤٥) الشعث : انتشار الأمر ، ولم الله شعثك ، أى جمع أمرك المنتشر .
(٤٦) يقال استأثر بالشيء ، أى استبد به والاسم الآثرة .
(٤٧) الوازع الذى يزع الناس ، أى يكفهم .
(٤٨) الانكماش هو : النقيض من انكماش الضرع ، أى تقلصه كما تقدم .
(٤٩) يريد بالاعتبار الشرف والحرمة ، واستعمال الاعتبار بهذا المعنى عامى مبتذل .
(٥٠) يريد العاطلين .
(٥١) يريد نشأ جديدا ، أى شبانا .

(٥٢) يريد المقاهى ، أى المشارب .

(٥٣) يريد الشباب : جمع شاب ، أما الشبيبة فهى الحداثة خلافة الشيب .

(٥٤) أحدثت : أحاطت .

(٥٥) أهداب أطراف من هدب العين ، وهو ما نبت من الشعر على أشفارها ، وأهداب الشجرة أغصانها .

(٥٦) غياهبها : ظلماتها .

(٥٧) المثابرة : المقاومة .

(٥٨) استكان : ذل ، استحذى ، وان الرجل من الوجع ، صاح .

(٥٩) من نهكته الخمر هزلته .

(٦٠) أما معطوف على تنبيه أو على حالتنا .

(٦١) الحضارة بكسر الحاء أو بفتحها .

(٦٢) الحول : القوة .

(٦٣) مذعورة : فزعة .

الملحق الخامس

أمير الشعراء وفتحى زغلول (*)

جاء فى العدد السابع من المجلد الأول من مجلة "أبولو" عدد مارس سنة ١٩٣٣ ما يأتي : "لما فكر البعض فى إقامة حفلة تكريم لفتحى زغلول بمناسبة تعيينه وكيلا لوزارة الحقانية فى فندق شبرد ، طلبوا إلى شوقى أن يسهم فى الحفل بقصيدة ، وقبيل الحفل أرسل شوقى مظروفا ، فلما فتح وجدت فيه الأبيات التالية التى بقيت مكتومة إلى يومنا هذا ، وقد ظفرنا بها من صديقنا الشاعر على محمود طه ، عضو مجلس جمعية أبولو" :

إذا ما جمعتم أمركم وهممتمو بتقديم شيء للوكيل ثمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة وسروال مجلود وقيد سجين
ولا تعرضوا شعرى عليه فحسبه من الشعر حكم خطه بيمين
ولا تقرأوه فى شبرد بل اقرأوا على ملأ من دنشواى حزين

وحقيقة الموضوع أنه لم تقم حفلة تكريم لفتحى زغلول إلا فى ٢٧ يونية سنة ١٩١٣ على أثر نشر كتابه (شرح القانون المدني) أما فى النصف الثانى من سنة ١٩٠٧ فكان التفكير منحصرا فى تقديم هدية إلى فتحى زغلول تكريما له بمناسبة تعيينه وكيلا لوزارة الحقانية فى سنة ١٩٠٧ . وإلى هذه الهدية يشير شوقى فى البيت الأول . . وقد كتبت (اللواء) بهذه المناسبة فى عدد يونية سنة ١٩٠٧ ما يأتي : "مأجورو قاضى دنشواى يريدون أن يقدموا هديتهم إليه فى هذا الشهر" إشارة إلى حادثة دنشواى التى حدثت فى مثل هذا الشهر (يونية) من سنة ١٩٠٦ .

(*) محمد صبري : الشوقيات المجهولة ، آثار شوقى التى لم يسبق نشرها ، الطبعة الثانية ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ٢٠٠٣ ، ص ٨٣ ، ١٥٣ – ١٥٥ .

أما قول المجلة "وقبيل الحفل أرسل شوقى مظروفا ، فلما فتح وجدت فيه الأبيات التالية التى بقيت مكتومة إلى يومنا هذا . ." فقول مبالغ فيه ، فلا حفل هناك ولا كتمان لأن "خيال الظل" نشرت الأبيات فى إطار فى صفحتها الأخيرة المصورة بدون إمضاء أو أية إشارة إلى قائلها ، وذلك فى عدد ٢٠ يونية سنة ١٩٠٧ ، تحت صورة تمثل فتحى زغلول وهو ينظر مزعجا إلى قتلى دنشواى ماثلين أمامه جماجم وهياكل .

لكن الثابت أن شوقى كتب قصيدة فى رثاء فتحى زغلول نشرت كاملة فى " الآثار الفتحية " نقتطف منها هذه الأبيات :

يا أحمد القانون بعدك غامض	قلق البنود مجلل بسواد
والأمر أعوج والشئون سقيمة	مختلة الإصدار والإيراد
والأمر مختلط الفصيح بضده	تبكى جواهره على النقاد
وأتت على الأقلام بعدك فترة	فُطمت وكانت مدمنات مداد
فى ذمة الشبان ما استودعتهم	من خاطر وقريحة وفؤاد
ووسائل لك لا تمل كأنها	كتب الصبابة أو حديث وداد
وخطابة فى كل ناد حافل	ينصب آذانًا إليها النادى
ومعربات كالمنار وإنها	لزيادة فى رأس مال الضاد
وإذا المعرب نال أسرار اللغى	روَّى عبادا من إناء عباد
العلم عندك والبيان مواهب	حليتها بشمائل الأمجاد
ومن المهانة للنبوغ وأهله	شبه النبوغ تراه فى الأوغاد
فتحى رثيتك للبلاد وأهلها	ولرائح فوق التراب وغاد
وسبقت فيك القائلين لمنبر	عال عليهم خالد الأعواد
مازلت تسمع منه كل بديهة	حتى سمعت يتيمة الإنشاد
وحياة مثلك للرجال نموذج	ومماتك المثل القويم الهادى

* * *

عن المؤلف . . .

– الأستاذ الدكتور أحمد زكريا الشِّلق من مواليد طنطا عام ١٩٤٨ .

– دكتوراة في الآداب فرع التاريخ الحديث والمعاصر ، بتقدير مرتبة الشرف الأولى من كلية الآداب جامعة عين شمس (١٩٨١) . وعمل بها مدرسًا فأستاذا مساعداً فأستاذاً .

– عمل وكيلا لكلية الآداب جامعة عين شمس (٢٠٠٤– ٢٠٠٨) .

– حصل على جائزة الدولة للتفوق العلمي في العلوم الاجتماعية عام ٢٠٠٦ .

– حصل على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية عن عام ٢٠١٠ .

– حصل على جائزة جامعة عين شمس التقديرية عام ٢٠١١ .

أهم المؤلفات والدراسات :

– حزب الأمة ودوره في السياسة المصرية ، دار المعارف ١٩٧٩ .

– حزب الأحرار الدستوريين (١٩٢٢ – ١٩٥٣) دار المعارف ١٩٨٢ .

– رؤية في تحديث الفكر المصري ، جزءان ، الهيئة المصرية للكتاب١٩٨٤ ، ١٩٨٧ .

– الحزب الديموقراطي المصري(١٩١٨ – ١٩٢٣) ،الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٧ .

– فصول من تاريخ قطر السياسي ، المركز الأكاديمي ، الدوحة ١٩٩٩ .

– العرب والدولة العثمانية (١٥١٦ – ١٩١٦) ،مصرالعربية للنشر والتوزيع ٢٠٠٢ .

– تطور مصر الحديثة ، مصر العربية للنشر والتوزيع ٢٠٠٢ .

– تطور مصر المعاصرة ، فصول في التاريخ السياسي والاجتماعي ، القاهرة ٢٠٠٥ .

– الحداثة والإمبريالية ، الغزو الفرنسى وإشكالية نهضة مصر ، دار الشروق ٢٠٠٦ .

– أحمد فتحي زغلول والآثار الفتحية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٦ .

– الشيخ مصطفى عبد الرازق ومذكراته ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٦ .

– طه حسين ، جدل الفكر والسياسة ، المجلس الأعلي للثقافة ٢٠٠٨ .

– ثورة يوليو والحياة الحزبية ، النظام واحتواء الجماهير ، دار الشروق ٢٠١٠ .

– من الحوليات إلى التاريخ العلمي : نهضة الكتابة التاريخية في مصر ، مركز تاريخ مصر المعاصر ، دار الكتب والوثائق القومية ٢٠١١ .

– شارك في تأليف عدد من الكتب التي صدرت عن مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام ، ومركز البحوث والدراسات السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة ، ومعهد الدراسات العربية ، ودار الكتب المصرية فضلاً عن دراسات وتحقيقات لمؤلفات صدرت عن دار الكتب والوثائق القومية .

– له دراسات وبحوث عديدة نشرت في مختلف الحوليات والمجلات التاريخية في مصر والعالم العربي .

– رئيس تحرير سلسلة كتب "مصر النهضة" التي تصدر عن مركز تاريخ مصر بدار الكتب في إصدارها الثاني من يناير ٢٠٠٤ حتى تاريخه .

– رئيس تحرير سلسة "ذاكرة الكتابة"التي تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة منذ يوليو ٢٠٠٨ حتى تاريخه .

– مقرر اللجنة العلمية لمركز تاريخ مصر المعاصر بدار الكتب والوثائق القومية منذ عام ٢٠٠٨ حتى تاريخه .

– عضو مجمع اللغة العربية منذ نوفمبر ٢٠١٧ .

– نائب رئيس تحرير سلسلة « تاريخ المصريين» التى تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب من يناير ٢٠١٨ وحتى تاريخه .

الفهرس